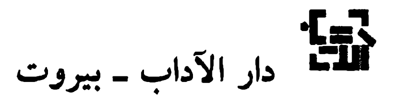

أيمن جعفر
مداد الروح
رواية
مدونة ابو عبدو
دار الآداب
كيف
محترف

مِداد الروح

أيمن جعفر

مِداد الروح

رواية



دار الآداب ـ بيروت

مِداد الروح

أيمن جعفر / كاتب بحريني
الطبعة الأولى عام 2014
ISBN 978-9953-89-453-9
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com




/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

الحُلم؟

إنَّه نحنُ بصيغةٍ مُكثَّفة، هُوِيَّتُنا التي تُطِلُّ من خلفِ شرفاتِ الفجر وتُنادينا، لوننا الحقيقيّ قبل أنْ تُلوِّحَنا الحياة. إنّه، بصيغةٍ أو بأخرى: مِدادُ الروح!

حين تراختْ أصابعي، سهوًا، لمْ أكنْ أعلمُ فيمَ كنتُ أُفكّرُ تحديدًا، إنْ كنتُ أحلمُ، أو أنَّ ما حدث كان كلاهما معًا. غير أنّ هذا كلّه لمْ يشغلني عندها تمامًا. ما شغلني هو أنَّ ذلك لا يحدث معي غالبًا. نعم، لا يحدث أنْ تنفلتَ القصبة من بين أصابعي إلّا حينما أكون مجهدًا من كثرة المشقّ، أو حينما أعودُ للخطّ بعد انقطاع طويل. الحالة الأولى تتكرّرُ معي دائمًا حين أعملُ على لوحاتٍ مستعجلة. أخطُّ، وأخطُّ، وأخطُّ،

حتى تبدأ عروقي بالتصلّب. أتابعُ بعناد. تتصلّب عروقي أكثر. تتيبّسُ قبضتي. تقفُ في لحظةٍ عصيّة وترتجفُ. أحاولُ لمَّ أصابعي عبثًا بقوّةٍ ذابلة فتنفلتُ القصبة، وأستسلم.

أمّا في الحالة الأخرى، أي: بعدما أنقطع عن الخطّ، فإنّني ما ألبث حتى أجدَ القصبة منفلتةً لكن بمحض إرادتي هذه المرّة، إذ تحمرُّ ملامحي ويصعدُ دخانٌ حارٌّ من أعماقي يُلهِبُ أنفاسي بالتوتّر، فأفلتها في لحظة تبرّمٍ كأنّها هي، ولستُ أنا، السبب.

لمْ أرَ أصابعي حينها طبعًا، بيد أنّني الآن، أكادُ أراها وهي تتداعى رويدًا رويدًا لتجعل القصبة عاريةً في الهواء حيث لا يمكنها أنْ تقف. رنينها صوتٌ مباغتٌ كأنّما هتفَ بي من أغوارٍ سحيقة. كأنّه زلزال انتشلني من أشياء كثيرةٍ ما زلتُ لا أعرف ما كانت بعدُ. رُحْتُ أمحو سُحبَ أفكارٍ شتّى، ثم انهمكتُ في تنظيف الطاولة الخشبيّة من بقع الحبر الأسود الكثيف المنتشر على مستطيل الطاولة. حاولتُ الاعتذار من كلّ طلّابي بصورةٍ تتوسَّلُ الدعابةَ هدفًا لستر ما انكشفَ من ارتباك ملامحي ومن الرجفة البغيضة في يدي.

أردتُ أنْ أطمئنَ نفسي إلى أنَّني قد نجحتُ في ذلك بأنْ صوَّبْتُ ناظريَّ نحو الجدار الأبيض أمامي، هناك في مسارٍ لا تتضحُ فيه أيٌّ من عيون طلبتي الذين يكتظُّ بهم المكان. كدتُ

أنجحُ وأخفِضُ عينيَّ باتّجاه الطاولة، لولا أنْ رمشتْ عينايَ بسرعةٍ أكبر فجأةً، وتنبّهتُ ليدٍ نحيلةٍ تلوِّحُ لي. أحسستُ بالتداعي. صوَّبتُ عينيَّ فيما كنتُ أبتلعُ بعضًا من ريقي الجافّ. دقيقة واحدة أو أقلّ من ذلك وتنفّستُ الصعداء. لمْ يكن الأمر سيّئًا كما كنتُ أهجس. إذ كلُّ ما حدثَ هو أنَّ اليد السمراء النحيلة أومأتْ إليَّ بأصابعها الخمس في حركةٍ سريعةٍ من اليمين إلى اليسار، فتوقّفتْ ثوانٍ قبل أنْ تتراخى، وتهبط إلى الطاولة. فهمتُ ذلك جيّدًا.

كانت تلك اليدُ السمراء لعمّار أحد تلاميذي المثابرين. اليدُ التي تخبرني بدقّةٍ متناهيةٍ أنّ الوقت انتهى. عمّار هذا يتندَّرُ عليه زملاؤه بتلقيبه «كاسيو ـ Casio» لشدّة حرصه على الوقت. أيُّ أحدٍ سيسأله عن الوقت سيجيبه بالثواني فضلاً عن الساعة والدقائق. وإنْ حدثَ وكلّفه أحدٌ بإخباره بوقتٍ محدّد فإنّه يكون دائمًا عند ذلك الوقت تمامًا، ولم يحدثْ أنْ أخطأ مرّةً واحدةً في ذلك. يحبُّ لغة الإشارة. يكتفي بالإيماءات وحدها، وهي تكونُ حاسمةً جدًّا لمَنْ يعرفه. حاسمة ودقيقة. أصبح بمرور الوقت يشبه إيماءاته. يشبهها في دقّتها وصرامتها. من هنا، ربّما، اكتسبَ مهابةً سرّيّة من طرف زملائه رغم تندّرهم الدائم عليه. لا ينزعجُ عمّار من نكاتهم، حتى حينما خلتُ أنّه سينزعجُ وسينفجرُ بعد أنْ عمد أحد الطلّاب إلى رسمٍ كاريكاتيري لساعة «كاسيو» عملاقة، وعليها

يجلسُ عمّار، أو ما يشبه عمّار بملامحَ مضحكة وبلهاء، وهو يلوِّحُ بيدٍ بدتْ أكثر سمرةً ممّا هي عليه في الواقع، فيما تتوزّعُ جملٌ على يمين الصورة ويسارها مثل: «الساعة الآن الثامنة ودقيقة وأربع عشرة ثانية»، و«تبقّتْ إحدى عشرة ثانية»! لم ينزعجْ. ربّما يفعلُ ذلك؛ لأنّه يعلمُ في سرّه أنّها تنطوي على أشياء أخرى تُشعره بالارتياح والزهوّ. صحيحٌ أنّه زَمَّ شفتيْه للحظة إلّا أنّه ما لبث أنْ جعلهما تفترانِ عن بسمةٍ أغاظتْ جميعَ مَنْ كانوا يراهنون على انفجاره، ما خلا واحدٍ هو أنا. أنا الذي توقّعتُ انفجاره ولمْ أراهن عليه.

أومأتُ موافقًا، بعد أنْ صوّبتُ ناظريَّ، للحظة، تجاه الساعة الفيروزيّة الدائريّة ذات العقربين الذهبيّيْن اللذيْن أحبُّ التماعهما في هذه القاعة الصغيرة، حيث أكونُ هنا مدّة خمسة أيّام في الأسبوع، منذ الرابعة عصرًا، وحتى الثامنة مساءً. فعلتُ ذلك رغم تأكّدي من دقّة ما يُومئ إليه. إلّا أنّني أخشى دومًا من أيِّ خطأ.

تلفتُّ يمينًا وشمالاً في اتّجاه أعينٍ لا أودُّ الالتقاء بها. ما زلتُ في حالٍ لا تسمحُ لي بذلك. سمعتُ تمتمةً وهمهمةً ثم ضحكًا مكتومًا. لم أسمع جيّدًا ما قيل، غير أنّ شيئًا ما فيَّ اضطرب. تنحنحتُ بحزمٍ ورُحتُ أملي عليهم واجبهم ليوم غد. عليهم خطّ عبارة: «الخطّ هندسة روحانيّة ظهرت بآلة

جسمانيّة» بخطّ الرقعة الذي أدرِّسهم إيّاه. تأفَّفَ يوسف أقصى يساري. أصبح كلُّ جسده البدين عبارةَ تأفّفٍ في ناظريّ. لاحظتُ ذلك، لكنّني واصلتُ شرحي لما ينبغي عليهم فعله وهم يؤدّون الواجب دون اكتراثٍ ظاهرٍ تجاه كتلة اللحم المتفجّرة هذه. تذكّرتُ أداءه السيّئ اليوم وعدم استطاعته إجادة مسك القصبة بطريقة صحيحة رغم مضيّ أكثر من شهرين على التحاقه بنا. أفهمُ أنْ يحتاج الطالب وقتًا ليعتاد الإمساك بالقصبة وفق زاوية الخطّ الصحيحة، وأفهم جيّدًا أنّ الخطأ محتملُ الوقوع أيضًا في لحظات سهو أثناء الانشغال بمحاولة إتقان الحروف. لكن، لا يصلُ الأمرُ إلى الدرجة التي بلغها هذا الشابّ. أحسبُ أنَّ ذلك يعود إلى عدم اهتمامه بمسألة الزاويةِ الصحيحة للكتابة. هذا من أكثر ما يثير حنقي. في الأمر كثيرٌ من الاستخفاف الذي يجعلُ ملامحي تجفُّ وتغلي!

استمعتُ إلى بعض الأسئلة، وأجبتُ عن بعضها، فيما تركتُ بعضها الآخر معلّقًا حتى يوم غدٍ. أغلبها هواجس يتمُّ تجاوزها بعد العمل. لا أعلمُ لِمَ نحبُّ الاستسلام لهواجس يتكفَّلُ العمل الجادُّ وحده بتبديدها!

شكرتهم جميعًا، وبدأوا في الانصراف على إيقاعات أحاديث جانبيّة وضحكات متفرّقة. انصرف عمّار أوّلاً بمشيته السريعة. عليه بلوغ السيّارة خلال دقيقتين اثنتين حيث ينتظره

أخوه. انصرف بقيّة الطلّاب اثنين اثنين بأحاديث هامسة وأخرى بصوتٍ عال متمهّلين. فيما كان عليَّ لملمة أشيائي التي توزّعتْ هنا وهناك، والتي لا أعلم كيف تنتشر في كلّ مساحة طاولات طلّابي، وكثيرًا ما فقدتُ بعضها لهذا السبب تحديدًا، فقد يحدثُ أنْ أنسى قصبةً هنا، أو مِحْبَرةً هناك فينشلها أحدُ الطلّاب في غفلةٍ منّي.

تناولتُ قصبتي ذات المليمترات الثلاث التي أحبّها بلونها البنّي الداكن، وجودتها الفاخرة. أحبُّها أيضًا لطولها الذي يمنحني مساحة اطمئنان أكثر، وأنا أقطّها بالسكّين أو الموسى كلّما احتاجتْ زاويتها للتعديل. نظّفتها بمنديل ورقي من بقايا الأحبار التي علقتْ بها. القصبة ذاكرة جيّدة لما استخدم الخطّاط من أحبار. كلّ لون سيدلُّ على لوحةٍ هنا أو تمرينٍ هناك. رأيتُ اللون الأحمر ممتزجًا بالأسود، وفي مساحة ضيّقة قريبة من رأس القصبة وجدتُ بقعةً صغيرةً باللون الأصفر. حاولتُ تذكّر متى استخدمتُ هذا اللون الأخير تحديدًا، قبل أنْ يعودني أنّني استخدمته في خطّ نقطتيْن كبيرتيْن لكلمة (فبأيّ) من نصّ لوحة الآية القرآنيّة الشريفة: ﴿فبِأيِّ آلاءِ ربّكما تكذّبان﴾. أنجزتها في شكلٍ مستطيل واقف. النصّ متدرِّجٌ فيها من الأسفل إلى الأعلى. على الورقة البيضاء انتشرتْ الآية بلونها الأزرق، مختالةً بالخطّ الديواني الرشيق الذي دائمًا ما يكونُ ضمن خياراتي الأولى في أنواع الخطوط.

أعدتُ ترتيب الأوراق البيضاء المصقولة، التي لم أستخدمها بعدُ بحركةٍ سريعةٍ من يديَّ اللتين أطبقتا على طرفيْ رزمة الأوراق. أسندتها إلى راحتيَّ ثم قرّبتهما مرّتيْن أو ثلاث لتستوي، ثم أمسكتها وضغطتُ بأصابعي عليها، ورُحتُ أرفعها من على الطاولة وألقيها عليها، سريعًا، حتى استوتْ جيّدًا. وضعتها على الطرف الأيمن من الطاولة حيث مكانها المعتاد. نظرتُ متفحِّصًا في ورقتيْن خططتُ عليهما تصميميْن مبدئييْن شعارًا لمجلّةٍ قيد الصدور وفق ما أخبرني به صاحبها الذي أتاني قبل أسبوع. راح يكيلُ المدح والثناء إليَّ قبل أنْ يقدِّم طلبه بأنّه يريدُ منّي تصميم شعارٍ أجملَ من كلّ شعارٍ صمّمته من قبل، ويعدني بأنّه سيقوم بحملة ترويجٍ واسعةٍ لي إنْ أنا نجحتُ في تصميم شعارٍ مثلما يحلمُ به. ما زلتُ غيرُ مقتنعٍ بالتصميميْن. هكذا أنا دائمًا صعب الاقتناع بأيِّ منجَزٍ أنجزه. أحسّه دائمًا مرحلةً ما غير منتهية، أو بدايةً قابلةً لكلّ إضافةٍ وتطوير. لشدّ ما أحبُّ اللمسات الإضافيّة والتطويريّة، لأنّها تتيحُ لي مساحات إبداع أكثر. تأمّلتُ التصميم الأوّل بخطّ الثلث. قرأتُ اسم المجلّة: «آفاق». التكوين في شكل دائري. تأمّلتُ الجهة اليسرى منه، فشعرتُ بفراغٍ أزعجني قليلاً. أمسكتُ بقلم الرصاص وتناولتُ ورقةً بيضاءَ من تلك التي للتوِّ وضّبتها إلى يميني. أعدتُ خطّ التكوين إنّما بجعل الفراغ المزعج موجودًا واستعضتُ عنه بمدِّ حرف القاف كقاربٍ يعبرُ

بحرًا من حليب الورق! تفحَّصتُ التكوين ثانيةً. قرأتُ بصوتٍ عالٍ: «آفاااق». شعرتُ بالمدِّ. «ماذا لو مددتُ الألف في المنتصف»؟ تساءلتُ بصوتٍ يستفزُّ يدي للإجابة. رسمتُ دائرةً بقلم الرصاص ثم خططتُ الكلمة مجدّدًا مع مدٍّ طويل للألف في المنتصف بإحساسٍ دافئ. حين أمدُّ الألف أشعر بالعروج. لكأنّي أرتقي سلالمَ في الغمام. أحسُّ بقلبي يعرجُ عاليًا نحو سماواتٍ بعيدة، فأشعرُ بأنّني لا أودُّ الانتهاء منه. أعرجُ نحو عوالمَ لا أتبيّنها لكنّني أحسّها في داخلي على نحوٍ غريب تمامًا كما حدث معي في ذلك الحلم.

يحدث معي دائمًا أنْ أخطَّ الحرف الذي يلي الألف الممدود بجودة أقلّ. هذه مشكلة لا أعرف سببها. ربّما لأنّني أشعرُ بنزولي بعد ذلك المدِّ من السماء إلى الأرض، من الحلم إلى الواقع، من كلّ شيءٍ جميل نحو شيءٍ أقلّ جمالاً وفتنة. هل تبصرُ أصابعي ذلك حقًّا؟

أقولُ لنفسي إنّه مجرّد تصميم مبدئي. . (سكتش) بين هلالَيْن سميكَيْن، لأخفي امتعاضي من حرف القاف الذي أخفقتُ في خطّه جيّدًا كما ينبغي.

حاولتُ تأمُّل التصميم الجديد. كانتْ عينايَ على الألف بصورةٍ مركّزة. كنتُ لأقرِّبَ عينيَّ أكثر منه لولا أنْ رنَّ هاتفي، فدسستُ يدي اليسرى في جيبي وتناولته. ضغطتُ على زرٍّ

الإجابة المرسوم على شكل سمّاعة هاتفٍ باللون الأخضر، وثمّة ابتسامةٌ تتلوَّنُ على شفتيَّ. كانت خالتي هي المتّصلة. حينما تتّصلُ بي خالتي مريم أسمعُ تغريدًا عميقًا في قلبي. أسمعه ينمو وينمو إنّما على إيقاعٍ غير مرئي. يكونُ اتّصالها غالبًا موعدًا لشيءٍ يجعلني مشرقَ المُحيَّا. ولمْ تخيِّبْ ظنّي هذه المرّة أيضًا حيث دعتني إلى بيتها لتناول (الباستا) التي تتقنُ تحضيرها وتعلمُ أنّني أحبّها جدًّا. قالتْ لي مستفزّةً معدتي الخاوية إلّا من نصف كوب شاي وقطعة صغيرة من (الدونت) قبل نحو ساعتين: «الباستا لا تنتظرُ كثيرًا». كان هذا بمثابة إعلان حربٍ في بطني، إذ تواثبتْ جيوشٌ لا مرئيّة ترفعُ الأشواك والملاعق والسكاكين وتضربُ بعضها ببعض، وتتقافزُ عاليًا لتسيلَ لعابي حين تهبط بكلّ ثقلها عليه.

وجدتني أتذكّرُ (الباستا) الأخيرة التي تناولتها من يد خالتي قبل أكثر من شهريْن. ما زلتُ أتذكّرها جيّدًا بقطع الفطر الكبيرة التي أحبُّها كثيرًا. تعمدُ خالتي دائمًا إلى جعل صحني مملتئًا أكثر بها، وتغمزُ لي بعينيها الواسعتيْن الضاحكتيْن، قبل أنْ تسألني: «أزيدك؟».

لم أملكْ إلّا أنْ أطيرَ إلى بيت خالتي الصغير الواقع في كتف شارع فرعي ما زال قيد الصيانة بالقرب من محطّة البترول في قرية عالي الصغيرة. تركتُ كلَّ شيءٍ لمْ أعِدْ ترتيبه بعد:

أوراق اللوحات البنّيّة والبحريّة، ومحابر التمرين الصغيرة، وأقلام الخطّ الجاهزة، وكرّاسة الخطّاط العراقي هاشم البغدادي مفتوحةً على صفحتي حروف خطّ الثُّلُث وحركاته. هممتُ بالخروج، غير أنّني توقّفتُ هنيهةً بعد أنْ أطفأتُ النور والتمعتْ عقاربُ الساعة مشيرةً إلى الثامنة والنصف مساءً. ربّما التمع زجاج اللوحة المستطيلة تحت الساعة أيضًا. أقولُ ربّما لأنّني لستُ أتذكَّرُ على وجه التحديد ذلك. ما أتذكّره هو التماعُ الحبر التركوازي الذي حضَّرته قبل أكثر من ثلاثة أشهر. عفوًا! هل قلتُ: «الحبر»؟! لا.. كيفُ أخطأتُ هكذا؟! لا أعترفُ به حبرًا.. لا أسمّيه كذلك. بل هو «مِداد». نعم، «مِداد». ففي قاموسي «الحبر» هو هذا الذي يأتي جاهزًا للاستخدام، أمّا المِداد فهو هذا الذي أحضِّره بنفسي. هذا الذي أبقى لأجل تحضيره ساعاتٍ وأيّامًا وربّما أسابيع وأشهر. الحبرُ جاهز وناجز مهما كانت جودته. الحبرُ أداة.. وسيلة ليس إلّا. سيأتي كلّ خطّاط ويستخدمه. مهما هامَ به سينظرُ إليه كشيءٍ جاهز وسيتفاخرُ بخطّه. سيركّز على خطّه وأنّ الحبر ساعده أو خدمه. لكنّ المِدادَ.. أي كما أفهمه أنا: قصّة أخرى. إنّها قصّة حياة اللوحة ونموّها. سيرورة عشق. كيف لا والخطّاط يأتي بموادّ الحبر الأوّليّة ويبقى يخلطها ويعجنها ويغليها ويسهرُ عليها ويعيش قلقَ التكوين، مترقّبًا بشوقٍ مضطرمٍ ولادته؟ كيف لا وهو سيختبرُ بنفسه كثافته، وسيجعله

وفق الكثافة والسيلان الذي يريد، ووفق الدرجة اللونيّة التي يريدها تمامًا؟! المِدادُ صناعة وَلعٍ وعشق! لهذا كلّ حبرٍ أحضّره أو يحضّره أيُّ خطّاط بنفسه هو، بحسب اصطلاحي: «مِداد». مِدادٌ لنَفَسِه وهو يتجلّى فيه وبه.

المِدادُ التركوازي دافئ. حين أراه أحسُّ بأشعّة حانية تخترقُ مساماّتي وتلاطفها، وأنا ما فتئتُ أحسُّ أنّني فعلتُ شيئًا عظيمًا حين استطعتُ في خلطة عجيبة أنْ أفضي إلى هذا اللون البهيج، بيد أنّني شعرتُ، رغم ذلك كلّه، حينها بنقصٍ ما جهلتُ سببه. أنرتُ مجدّدًا القاعة، ومشيتُ خطواتٍ متسارعةً تجاه اللوحة حيث هي باستطالتها المعتدلة وبإطارها الخشبي، على يساري. وضعتُ يدي على نظّارتي ذات الإطار الأسود لأخبرها، ربّما، بما أودُّ رؤيته تحديدًا. تفحّصتُ بعينيَّ السوداويْن سيرورة مِدادي. سبرتُ بهما، أيضًا، كثافته. «لا شيء ينقصه». هكذا حدّثتُ نفسي غير مطمئنٍّ تمامًا لهذه النتيجة التي بدتْ حاسمةً لجهة البصر، وغير ذلك لجهة القلب. لا أقولُ هذا لأدّعي الكمال، لكنّه حقًّا يبدو هكذا وفق القواعد الفنّيّة المرعيّة. رغم ذلك كلّه أحسستُ بنقصانٍ مريع، نقصانٍ يكادُ يهدمُ كلَّ جماليّة اللوحة، ولا أعلمَ لمَ ولا أين مكمن هذا الشيء الذي أحسستُ به ولم أهتدِ إليه!

ارتفعت الأشواك والملاعق والسكاكين مجدّدًا. تقدّمت

فرقة بالصحون فيما تقافزت أخرى لتسيلَ نهرًا من الجوع. بدا أنَّ وقوفي غير ذي جدوى. تركتُ يديَ تعودُ لمكانها، وعينيَّ أنْ تشيحَا لحظةً عن التماع المداد التركوازي. لملمتُ نفسي وعدتُ خطواتٍ لأطفئ النور. أيقنتُ حينها أنَّ بطني أيضًا لا يحتملُ الانتظار أكثر. أيقنتُ ذلك بصورة أشدّ بعدما لم أنتبه لقطع النخلة الممتدّة قرب نافذة القاعة، ولا لتلويحات مجموعة من تلاميذي السابقين بالقرب من قاعة الدرس، ولا لصديقي محمّد الذي كان يقبل مسرعًا نحوي. اكتفيتُ بتلويحة سريعة شبه معتذرة عن التوقّف. مشيتُ من دون أنْ أنظر إلى ردّة فعله حتى، ولا للوحات الكبيرة الجديدة التي ينهمك العمّال في تركيبها أمام مدخل المدرسة، ولا لإزالة الإعلان الأصفر المُلقى على يسار نافذة سيّارتي الكامري السوداء، ولا لفيروز وهي تغنّي «سألوني الناس» مباشرةً بعدما أدرتُ مفتاح سيّارتي، ولا بنيّتي الذهاب إلى زيارة بيت ابن عمّي حسن المريض منذ أسبوع. وحدها الصحون الفارغة الكثيرة أراها تنتظرُ «الباستا»، ولهذا حينما وصلتُ إلى بيت خالتي هرعتُ إلى الاتّصال بها سريعًا بعدما لاحظتُ تعطّل الجرس البنّي المربّع المقلّم بخطوط سوداء. لمْ أسلّم عليها في اللحظة الأولى التي قالتْ لي فيها مجيبةً على اتّصالي: «أهلاً حبيبي». فقط قلتُ لها: «الباستا لا تنتظر».

مرّت دقيقتان أو ثلاث قبل أنْ تفتح لي خالتي الباب. في

كلّ مرّة أقفُ فيها هذه الدقائق البسيطة أتأمّل الطابق الثاني من بيتها. ما يزال دون طلاء منذ تشييده. أمّا الطابق الأرضي فما برحَ على حاله بلونه البنّي الفاتح. تذكّرتُ زوج خالتي «حسين» وهو فيما يشبه الاعتذار يُقدِّمُ لي لائحةً طويلةً من مبرّرات تأخير ذلك. يحدِّثني دائمًا عن ارتفاع أسعار الطلاء وعن عدم ثقته بعمل المقاولين في هذه الأيّام، وعن أحواله المادّيّة المتقلّبة، وعن تحيّره بشأن اللون الذي سيطلي به. أهو اللون نفسه أم يغيّره؟ يقول لي وهو يغمزُ إلى خالتي: «خالتك لا تدعنا نتنفّس. كلّ أموالي تطيّرها. لكأنّها تخشى إنْ بقي معي مال كثير أنْ أتزوّج بأخرى». يضحك ثم يواصل متحمّسًا كأنّما أعجبته الفكرة: «حتى لو حدث. هذا أمر إيجابي. ستكون مساعدةً لها في تدبير شؤون البيت. ما رأيك؟». يسألني بعينين تستحثّاني على موافقته، فيما تحدّجني خالتي بنظراتٍ محذّرة. أكتفي بضحكة عابرة قبل أنْ أصوِّبَ سؤالي المفحم: «وأين ستجدُ مثل خالتي؟». يصمتُ قليلاً. ربّما ليعود لترتيب الموقف لمصلحته من جديد فيما تفترُّ شفتا خالتي عن بسمة واسعة لهذا الانتصار الماكر، وترسمُ لي بشفتيها قبلةً في الهواء.

لوَّحتْ لي خالتي بيديها البيضاويْن تلويحتها المعتادة: تلويحة سريعة بيديها معًا قبل أنْ تشبك يديها لثانيةٍ في الهواء ثم تباعدهما وتتوقّفُ متقدِّمةً باتّجاهي مبتسمةً. هل كانت تلوِّحُ

أم تمسحُ غيومَ المشاهد التي انثالتْ عليَّ؟ انتبهتُ بابتسامةٍ واسعة بلهاء قليلاً. دعتني إلى الداخل فورًا. سلّمتُ عليها وقبّلتها. انتبهتُ إلى النقاط التركوازيّة الصغيرة التي تتوزّع على قميصها الكحلي. ابتسمتُ مرّتيْن: الأولى حين تذكّرتُ مدادي ذاك، والأخرى حين قالتْ لي بعد أنْ لاحظتْ عينيَّ على تلك النقاط: «هل أعجبك اللون يا أبا الألوان»؟. هززتُ رأسي مرّةً واحدةً بشكل معتدل. امتزجت بسمتها بضحكة ناعمة، قبل أنْ تقول بشيءٍ من الاعتراف: «لا يحدث أنْ أحضِّر الباستا دون أنْ تخطر على بالي، ولا طاقة لي لتناولها من دون أنْ تكون إلى جانبي». ابتسمتُ وشكرتها بعباراتٍ لا أعلمُ إنْ كانت جيّدةً أم لا، لكنّها جعلتْ عينيْها تبدوان ضاحكتيْن بصورةٍ أكثر صفاءً، قبل أنْ أخبرها بأنّني لا أغفر لها أصلاً أنْ تحضِّرَ الباستا دون أن آخذ حصّتي منها، لأنّني سأعتبرُ الأمر خيانةً. وضعتْ يدها اليمنى على صدرها، وغرقتْ في ضحك منقطع قبل أنْ تنطق وهي تربتُ على كتفي لتجيبني: «ولو؟!».

لستُ أدري لِمَ أشعرُ بأنّني أتمدَّدُ وبأنَّ قلبي يكبرُ حينما أكونُ في صالة بيت خالتي. الأمرُ الأكيد هو أنّ الأمر لا علاقة له بكبر مساحة هذه الصالة؛ لأنّ صالة بيتنا أكبر منها بمرّتين أو ثلاث، لكنّها لا تمنحني الإحساس نفسه. الأثاث أيضًا لا علاقة له؛ فهذا الأثاث ذو الطابع المصري لا يجذبني كثيرًا ولا أميلُ إليه. إنّه جميل بلونه الخشبي ووسائده المارونيّة،

وبالسجّاد الفارسي الأحمر المنقوش بنقوش فيروزيّة، وبيضاء، وصفراء، تتوزّع بإتقان في مساحته المستطيلة لكنّه لا يدهشني. ولا أحبُّ الجدران البيضاء التي تواجهني. أحسّها ورقةً تترقّبُ قوافل الحروف. لا أحبُّ أنْ تبقى الأوراق بيضاء. لا أحبُّ أنْ أرى أيَّ شيءٍ يمكنني الخطّ عليه أبيض. كلّ أبيض، بهذا الشكل، يستفزّني. يستفزُّ يدي، وقصباتي، وفرشي، وأحباري، ومدادي. يستفزُّ عقلي لتكويناتٍ حروفيّة أو لنصوص جميلة ومباركة في وسعي خطّها. ربّما لهذا كلّه لا أبقي على الأوراق البيضاء طويلاً بالقرب منّي إلّا حينما أكونُ في جلسة عمل مكثّف. الأبيضُ، هنا، نقصان! هكذا ببساطة. بيد أنّ الجدران البيضاء هنا ليست ناقصة. ها هي لوحاتي السبع تخفِّفُ من فراغه. لا أعلمُ حقًّا إنْ كان هذا علّة شعوري بالارتياح أم لا! لا أعلمُ. لكن ليس بوسعي إنكار الإحساس بطعم التوت والحلوى في داخلي.

دعتني خالتي إلى الجلوس فيما راحتْ تحضِّرُ المائدة. التفتُّ صوبَ طاولة الطعام. لقد تغيّرت. انتبهتُ إلى ذلك بعينيْن واسعتيْن. كانت الطاولة السابقة بنّيّة مستطيلة، أمّا هذه فسوداء دائريّة. عدد الكراسي نفسه: ثمانية. بدتْ هذه الطاولة مع الستائر المارونيّة الكبيرة المقلّمة باللون الذهبي أكثر تناسقًا من سابقتها. على يمين الجلسة لم يتغيّر مكان التلفاز بشاشته ذات الاثنتين والأربعين بوصة. ربّما تغيّرت بعض التحف

الصغيرة على الطاولة المحاذية. لستُ أدري. ذاكرتي لا تحتفظ بصورٍ جيّدة للتحف الصغيرة كما لا تحتفظ بانطباع جيّدٍ عنها. أحبُّ التحف الكبيرة كتلك المزهريّة المارونيّة على يساري. أحبّها بطرازها الأنيق وبنقشها الياباني البسيط.

تقدَّمتُ خطواتٍ قليلةً قبل أنْ أتوقّفَ وأستعدَّ للجلوس على الكرسي الماروني الصغير. أسندتُ ظهري إلى الوراء، وشعرتُ بوخزاتٍ في المنطقة الأخيرة من ظهري، فقدّمتُ جذعي قليلاً إلى الأمام لأجعلَ يدي تضغط بشكل أفقي على منطقة الألم عدّة مرّات، قبل التوقّف. ليس لأنَّ الألمَ قد خفَّ، وإنّما لأنَّ زوج خالتي حسين قد أطلَّ. عرفتُ ذلك قبل أنْ تكشفُ عنه العتبة التي تتوسّط الدرج أقصى اليمين. عرفته من صوت ضربه لحاجز الدرج المعدني الأسود. هذه هي عادته: النزول مع ضرب حاجز الدرج وهو يدندنُ بما لا أستطيع سماعه جيّدًا. كأنّه شريط كاسيت عَلَكَهُ المُسَجِّلُ فغدا يعطي لحنًا من كلامٍ مبهم!

حين رآني أقبلَ يَحُثُّ جسده الممتلئ بخطواتٍ متسارعة مُرَحِّبًا بي، وهو يقول: «الحمد لله أنْ أتيتَ. خالتكَ هدّدتنا. إنْ لم تستطع المجيء الليلة فسنأكل الزبادي بدلاً من الباستا. لا تستطيع تخيّل أنْ نتناولها من دونك! كم أنتَ محظوظ يا بنيّ! لكَ عندها من الحظوة ما ليست لي!». قلتُ له، بابتسامة

مرتبكة، إنّ ذلك من طيبة خالتي وأنا أصافحُ يده الغليظة. قال لي إنّني لا أسمن. أعادَ على مسامعي هذه الجملة التي يكرّرها دائمًا في كلّ مرّة يراني فيها، كما أعادَ عليَّ نصيحته التي وحده يضحكُ عليها كأنّها ما زالتْ تحتفظ بطزاجة طرافتها: «لا بدَّ لك أن تتناول الباستا في كلّ لحظة»! ابتسمتُ مُجاملاً وحاولتُ أنْ أنتزعَ ضحكةً لمْ تأتِ. حفظتُ جملته مثلما حفظتُ طلّابه في مدرسة عالي الإعداديّة للبنين وعوائلهم. كلّما سألته عن أحوال العمل يجيبني بالعبارة ذاتها: «التدريس؟ ماذا أقول: انتحارًا؟ تعذيبًا؟ أم مرضًا خبيثًا يسمِّمُ كلّ خلايا الأستاذ؟» ثم يغرقُ في الحديث عن طلّابه المشاكسين أو «المراهقين» كما يحلو له تسميتهم. حدَّثني هذه المرّة عن طالب تمّ فصله قبل يومين، لأنّه أقدمَ على تكسير زجاج سيّارة أستاذ مادّة العلوم بعد رسوبه في اختبار منتصف الفصل الدراسي. قال لي مفتتحًا ملفَّ آفاق التدريس ومستويات الطلّاب، هذا الملفّ الذي لا ينتهي: «تخيّلْ! تخيّلْ أنَّ هذا فعل طالب في الصفّ الخامس الابتدائي! ماذا سيكون من أمره لو ذهب إلىَ الثانويّة؟! يقتل أستاذه؟! أيُّ تعليمٍ والأستاذ لا يأمنُ على نفسه ولا على ممتلكاته؟! لعلّك ما زلتَ تذكر أنّني حدّثتك عن ذلك الطالب الحقير الذي قام برشِّ الأستاذ المشرف على الإذاعة ومَنْ معه من الطلّاب بالـ «بِفْ باف» في إحدى الصفوف لمجرَّد أنّه لمْ يخترْه معهم! ماذا أخبّرك أيضًا؟ اممم.. هل أخبرتك عن..».

كالعادة أنجدتني شيماء ابنة خالتي بطلّتها حين تأتي وتضع الصحون أوّل مرّة. فعندما تلقي التحيّة يكون الخلاص من الحديث المملّ عن كلّ مشاكل التدريس، والطلّاب، والإدارة، ورغبة زوج خالتي في الانتقال إلى الوزارة، أو إلى تدريس المرحلة الثانويّة؛ لعلّ ذلك يكون أفضل بالنسبة إليه. أطلّت شيماء بقامتها الطويلة الممشوقة وبعباءتها السوداء (البالطو) المنقوشة بباقة زخارف من الورود الحمراء في شكل متماوج وصاعد في أقصى يسارها. ملامح شيماء ناعمة وهادئة لا سيّما مع عينيها البنيّتين الضاحكتين أبدًا. يحسُّ المرء بالوداعة حين يتأمّلُ بياض وجهها عند ابتسامه. فيها الكثير من ملامح أمّها، لا سيّما الهدوء المرح الذي تتحدّث به. ألقتْ التحيّة بهدوء، قبل أنْ تضيفَ مستشعرةً تململي من حديث والدها، وبضحكةٍ ساخرة: «لا بدّ أنّ الوالد الجميل يعذّبك بقصص المدرسة». حاولتُ النفي، لكن ذلك جاء متأخّرًا بعض الشيء بعد أنْ ضحكتُ لثوانٍ فهِمَ خلالها زوج خالتي الرسالة، وقام بسؤالي عن حال والدي بملامح بدتْ جادّة بعض الشيء. توقّفتُ عن تلك الضحكة التي بدتْ غير مناسبة، وحاولتُ النحنحة ربّما لأطردَ صورتي التي لا شكّ أنّها أزعجته. أجبته فيما تذكّرتُ أنَّي لمْ أرَ والدي منذ صباح أمس. آخر مرّة رأيته فيها كانتْ قبل أنْ أتوجّه إلى عملي. كان قد أكمل ارتداء جوربه الأيسر، وهو ينادي بصوتٍ عالٍ على أمّي

لتسرعَ في الحضور حالاً، ثم تناول كوبه الأبيض وتأكّدَ من إحكام سدّادة غطائه قبل أنْ يودّعني بسلامٍ مستعجل.

قال لي زوج خالتي إنّه يحترم أبي كثيرًا، خاصّةً بعد سماعه عنه كلّ خير من حيث التزامه ومثابرته على عمله ونجاحه في عمليّات كثيرة. قال لي ذلك وهو يضعُ يده على لحيته التي بدأت تطفو عليها شعراتٌ بيض تتركّزُ عند ذقنه. تبسّمتُ بانشراح. أبديتُ إعجابي بالتغيير الذي حدث خلال الفترة الماضية. تلقّى ذلك بابتسامة واسعة، وأضاف بأنَّ ذلك كلّه من اختيار خالتي وابنته، وأنّه ما زال يفكّر في إعادة طلاء البيت ولا ميزانيّة لديه لذلك، كما أنّه لم يحسمْ بعد اختيار اللون الذي سيطليه به. أجلتُ ناظريَّ في الأثاث الجديد، ونطقتُ بعبارات ثناء على ذوقه، وأخرى تثني على حديثه عن ذوق خالتي.

تقدَّمتْ خالتي باتّجاه طاولة الطعام وهي تدعونا للاقتراب، فتابعتُ ثنائي الذي انفرجتْ بسببه أساريرها بشكل واضح. كانت تحمل طبق «الباستا» بيمينها محكمةً الضغط عليه بقطعتي قماش، ويتصاعد بخار ناعم من وسطه. تبعتها شيماء بصينيّة صغيرة لم أستطع رؤية ما فيها جيّدًا من مكاني، غير أنّني رأيتُ أربعة كؤوس زجاجية على الجهة اليمنى منها. حين وضعتْ خالتي الطبق ببطء، واطمأنّتْ إلى استقراره على

الطاولة عادتْ لتنادينا، معتذرةً عن تأخّرها، وهي ترمقني أنا وزوجها بنظراتٍ مستفهمة عن سرّ تباطؤنا في القيام. في الحقيقة، لستُ أدري لِمَ تباطأ زوج خالتي، فأنا ليس من عادتي النهوض قبل نهوضه. التفتُّ إليه فوجدته يُحرِّكُ يديه في مكانه، وأسفل الكرسي. حين التفتَ إليَّ قال بما يشي بالاعتذار: «أين ذهب الريموت، كان هنا! تفضَّلْ يا ولدي، لا تخجل أبدًا!». حرَّكتُ يدي أنا الآخر ودسستها في زوايا الكرسي الذي أجلسُ عليه. أدخلتها أعمق داخل الزاوية اليسرى من الكرسي، فاصطدمتْ به. قلتُ له إنّني وجدته بينما كانت خالتي تنذرنا بأنّها ستبدأ في الأكل، وشيماء تقول لوالدها إنّه يعطّلني. مددتُ يدي وانتشلته، قبل أنْ أعطيه لزوج خالتي الذي نهض باتّجاهي ومَدَّ يده البيضاء ذات الخطوط البارزة. لمْ يضع عينيْه في عينيَّ للتأكّد من صدق ما قلتُه له، بل إنّه جعلهما تهبطان إلى أزرار جهاز التحكّم (الريموت كونترول) وضغط بإصبعه على الزرّ الأحمر. عندما أضاءت الشاشة ضرب بسرعةٍ الرقم اثني عشر. سألني عمّا أنتظره بينما كانتْ عيناه مشغولتيْن بمتابعة إعلان «البيبسي» الجديد على الشاشة. لم أجبْ. تابعتُ معه بفضولٍ قطراتِ الماء الباردة على زجاجة «البيبسي» حديثة الشكل، قبل أنْ أحسَّ ببرودةٍ مباغتة في يدي. التفتُّ إلى اليد التي أحكمتْ أطرافها على أصابعي، وبدأت في سحبي باتّجاه طاولة الطعام. قالتْ لي

خالتي وهي تسحبني إنّها آخر مرّة ستسمحُ لي أنْ أبدو خجولاً هكذا في بيتها. لم أستطع التعليق، فاكتفيتُ بصمتٍ مبتسم. خلفي راح صوتُ زوج خالتي يعلو وهو ينعتني بالمحظوظ، فيما صوتُ خالتي يردُّ بأنّني أستحقُّ ذلك وأكثر.

ضاعفَ طبق «الباستا» الكبير بقطع الفطر الكبيرة التي أحبّها من حديث زوج خالتي عن حظّي حين رآه. جلستُ بالقرب من خالتي جهة اليسار، في مقابل زوجها الذي أعطى صحنه إلى ابنته الجالسة إلى جواره لتضع له فيه من الطبق. أمّا أنا فكان صحني جاهزًا كالعادة.

حين نجلسُ إلى طاولة الطعام، يكون زمام الحديث لخالتي. فعلى الرّغم من سماحها لزوجها ولابنتها بأخذ مساحاتٍ واسعة من الحديث حين لا نكون جالسين إلى طاولة الطعام، إلّا أنّها لا تسمح بذلك حولها. ربّما لأنّها تحسُّ بأنَّ هذا المستطيل الخشبي الذي يستقبلُ أطباق الطعام، والصحون، والملاعق، والأشواك، والأكواب، ملكها. ملكها وحدها. ولهذا فهي مَنْ تبدأ الحديث دائمًا بعد صمتها للحظة تسبرُ فيها من أعين الجالسين إلى الطاولة إعجابهم ورضاهم عن طبخها. لا مواضيع محدّدة تبدأ بها الحديث، ولا يمكن لأيٍّ أحدٍ أنْ يتنبّأ بما قد تطرحه. فقط إنْ لاحظ الحاضرون أنّها تطرح موضوعًا تستهلكُ به أغلب وقت الطعام وهي

تتحدّث، في الوقت الذي سينصتُ إليها كلّ الحاضرين من دون تأثّر أكلهم بذلك.

كنتُ لا أحسُّ بذلك حتى قبل عامٍ تقريبًا، حين تكرّرَ الأمر، وحاولتُ الحديث عن جِداريّتي العملاقة التي قمتُ بخطّها قبل زيارتي لبيتها بيومين. أتذكّرُ على نحوٍ جيّد أنّها أبدتْ إعجابها، ثم قالتْ لي بأنّها ستنتظِرُ تفاصيلَ ذلك كلّه ونحن نشربُ العصير، لأنَّ لديها أمرًا مهمًّا تودُّ قوله وتخشى نسيانه. كدتُ أقتنعُ بذلك، حينها، لولا أنَّ موضوعها لمْ يكن بالأهمِّيّة التي صوّرتْها لي.

بَيْدَ أنَّ ذلك كلّه لا يحولُ دون تناول خالتي لطعامها بشكلٍ جيّد، إذ إنّها تتقنُ الجمع بين الحديث والأكل، وتعرفُ متى يجبُ عليها التوقّفُ هنيهةً لتناول القليل من الطعام ومضغه، قبل متابعتها الحديث، في إيقاع متّسق.

لمْ يبدُ واضحًا صوتُ التلفاز إلّا أنَّ شيماء علّقتْ على صوت ممثّلةٍ لا أعرفها، بأنّها تملك صوت رجلٍ أفريقي. قطعتْ بذلك، وبمنتهى البراءة، حديث خالتي عن تفكيرها في فتح محلّ لخياطة العبايات وتطريزها في سوق المنامة. فعلتْ ذلك وهي تومئ إلى التلفاز بإصبعها، بينما وضعتْ يدها الأخرى على فمها، محاولةً كتم ضحكتها الطفوليّة، وهي تقولُ مرحةً تعليقها. لم تنزعج خالتي. بل إنّها تركتْ ملعقتها على

حافّة صحنها، ومدَّتْ يدها باتّجاه يد ابنتها وضربتها بلطف.

حاول زوج خالتي الرجوع إلى الخلف قليلاً ليسترقَ السمع لصوت الممثّلة، بينما كنتُ أحاولُ أنا فعل الأمر ذاته، ولكن من خلال تقديم وجهي من دون أنْ أشعِرَ أحدًا بذلك. لمْ يفلح أيٌّ منّا. بدا ذلك من خلال عدم قدرتي على تمييز صوت الممثّلة بوضوح مع ارتفاع صوت خالتي وابنتها وهما تتبادلان التعليق على ملابسها ذات اللون البرتقالي الفاقع المرقّطة بنقاطٍ ورديّة، في تناسب مع الصوت الإفريقي على حدِّ تعبيرهما معًا في لحظة واحدة ما أدهشهما، وجعل خالتي تمدُّ راحتها مستقبلةً ضربةً خفيفةً من ابنتها التي تشاطرها ضحكةً عميقة. أمّا زوج خالتي فقد أعلنَ عن ذلك صراحةً وبملامح متبرِّمة بقوله إنّه لم يسمع شيئًا، وفضَّلَ العودة إلى صحنه الذي لمَ يبقَ منه سوى أقلَّ من الربع.

عادتْ خالتي للحديث عن مشروعها لكأنَّ فكرة أنْ تفتتح لها محلًّا في سوق العاصمة التي تنتمي إليها تثيرها، وتشدُّ نبضاتها إلى ذلك المكان الذي ستسعى من خلاله لتقديم أنواع مميّزة وتصاميم أنيقة في سوق مزدحم بالمحلّات وبالمنافسين. بيد أنّها لا تحفل لذلك كلّه، فلا يهمّها الربح المادّي، كما قالت. ما يهمّها أنّها ستفتتح محلًّا في مدينتها الأمّ، ومَنْ سيعملنَ فيه لسنَ سوى جاراتها وصديقاتها الماهرات في

الخياطة. قالتْ إنّها ستساعدهنَّ بهذه الخطوة، كما أنّها ستستمتع كثيرًا برؤية أعين الفتيات والنساء وهي تتسعُ قليلاً، بينما تنفرجُ شفاههنَّ عن بسمةٍ حانية، وستكون في شوقٍ أكثر لرؤيتهنَّ وهنَّ يرتدين العبايات. قالتْ إنّها لا تودُّ أنْ تكون هناك طيلة الوقت. ربّما ستذهب لمدّة يوم أو يومين في الأسبوع. تودُّ أنْ تكون زيارتها خفيفة الظلّ وممتعة، وليست بصدد التأكّد من سير العمل وإحصاء المجموع من الأموال. تحبُّ أنْ تكون كعصير الليمون بالنعناع الذي تحبُّ تناوله وهي تتبضَّعُ من سوق المنامة، على حدِّ تعبيرها.

كلّ عملٍ عند خالتي متعة. ربّما صار في وسعي الحديث عن رؤيتها للعمل بهذا التوصيف. أقولُ ذلك لأنّها بعيدةٌ تمامًا عن جفاف نظام العمل وصرامته، ومدى نفعه بحسابات المادّة وحدها. تنطلق فيه من فكرةٍ لا بدَّ أنْ تداعبَ شيئًا ما في داخلها، ثم تندفعُ مأخوذةً به لتحقيقه، لتبقى وفيّةً له حتى النهاية، وتنذرُ كلَّ نفسها لأجل تلك الفكرة! على الرّغم من ذلك لا يمكن لأحدٍ أنْ يستغلّها، أو أنْ يتوهّمَ للحظة أنّها تفعلُ ذلك من منطق ساذج ليفتحَ ثغرةً هنا أو هناك ينفذ من خلالها لمآربَ تافهة. بل إنّها على النقيض من ذلك كلّه تكون في أشدِّ حالات اليقظة، وهي تحرسُ نفسها، ومشروعها، من أيّة محاولة لإفساده. أحسبُ أنَّ مَرَدَّ ذلك لقدرتها العجيبة على قراءة العيون والأصوات، فهي حين تستريبُ في أحدٍ أو في

موقفٍ ما تدعوه لتتحدَّثَ معه، حيث تستدرجه ليكون على كرسي اعتراف لا يعرفه، ولا يعرفُ أنّه جلس عليه واعترف لا من قبل ذلك ولا من بعده. تبتدرُه بحماس: «حدِّثني!» وهي تستحثّه على الكلام بعينيها الضاحكتين. وعليه الحديثُ سردًا لنيّاته المضمرة من باب يحسبه لا يؤدّي إلّا للبرهنة على فكرته فإذا به يفضحها في وقتٍ عسير!

شيماء قالتْ إنّها ستقومُ بحملةٍ ترويجيّة للمحلّ من خلال دعوة كلّ صديقاتها وزميلاتها في الجامعة حيث تدرس. قالتْ ذلك وهي ترفعُ إصبعها ـ السبّابة في وجه خالتي وتدفعها نحو الأرض، كأنّها ألقتْ بذرةً. ضحك زوج خالتي وهو يقولُ إنّه لا يفهم سرَّ هذه الإصبع المرفوعة كلّما نطقتْ زوجته أو ابنتها بكلمة «أنا». حينها، فقط، انتبهتُ بدوري إلى ذلك. لكنَّ خالتي وضَّبتْ ضحكتها ودعتنا لمتابعة أكلنا، ولنسمحَ لها بمتابعة الحديث.

الممثّلة الشقراء التي لا أعرف اسمها، صاحبة الصوت الرجولي الأفريقي أخرجتْ مسدّسًا من حقيبتها، ورفعته باتّجاه الشابّ الوسيم الذي كان منشغلاً بأوراق أمامه. انتبه إليها وهي تقتربُ منه، مشهرةً مسدّسها الأسود الصغير. لم أسمع ما طلبتْ منه، لكنّها شرعتْ في الصراخ على ما يبدو من فمها الذي اتسعَ مرّاتٍ عديدة. رفعتْ خالتي يدها مشيرةً إلى

التلفازِ، طالبةً منّا النظر إلى ما سيحدثُ داخل مكتب ذلك الشابّ الذي اكتفى برفع يديه والرجوع بكرسيّه إلى الخلف، قبل أنْ ينهض ويسند ظهره المرتجف على الجدار. يدُ زوج خالتي التي حملتْ كوبًا من الماء منعتني من رؤية ما حدث، خاصّةً حين قرّبها من فمه. هذا المثلّث لمْ يرِني ما حدث وقتها تمامًا، لكن شيماء قالتْ بصوتٍ متهدِّج: «اقتلها!». التفتُّ باتّجاه شيماء التي تسمَّرَ وجهها، وابتلعتْ ريقها مرّةً ثم أخرى بصورة أسرع. لمْ تلحظني، أعادتْ خالتي الكلمة بنبرةٍ أقوى كأنّها بذلك تقولُ لي إنّها موافقة على فكرة ابنتها. أعدتُ النظر إلى الشاشة لأرى الشابّ يقتربُ من الفتاة والمسدّس بيده مشهرًا إيّاه على مدى يده الطويلة، وحين توقّفَ على مقربةٍ من خصلات شعرها الشقراء انقطعتْ الصورة، وحلَّتْ محلّها صورةٌ أخرى سوداء بأسماء عديدة.

المسلسل انتهى لكن أعين خالتي وابنتها ما تزال مثبّتة على الشاشة على نحوٍ غريب. علّقَ زوج خالتي بأنّ عليهما الانتظار حتى مساء يوم غدٍ ليعرفا مصير صاحبتهما ذات اللون البرتقالي الذي يشبه لون حائط روضة الأطفال التي تقع على الشارع المقابل من شارع بيتهم. وبدا أنّهما قد أخذتا حديثه على محمل الجدّ، قبل أنْ تعودَ خالتي لتنظرَ إلى صحوننا التي فرغتْ، وتسألنا إنْ كنّا نودُّ المزيد!

كنتُ أراقبُ ذلك كلّه بمزاج غائم، وفي الحقيقة لا أحفلُ كثيرًا بكلّ تلك الأحاديث، ولا تجذبني بقدر ما يجذبني الجوّ اللطيف. محبّتي لخالتي بالدرجة الأولى تجعلني أجهدُ لتبديد سحب الملل التي تخيّم عليَّ حين يتمّ الاستغراق في أحاديث لا أميلُ لأغلبها عادةً، ولمحاولة أنْ أكون لائقًا أكثر اجتماعيًّا وفق صورةٍ معيّنة ليستْ صادقةً تمامًا...

يدي اليمنى في كفٍّ دافئ بالرّغم من بضع قطرات العرق الخفيفة التي تنسلُّ منها. تسحبني اليدُ إلى الأمام، فأتبعها بجسدي الصغير، أو تتوقّفُ وهي تهتزُّ قليلاً في الهواء، فأتوقّفُ. أمشي الآن خطواتٍ منتظمة. لكنّني أودُّ التوقّف قليلاً. قليلاً فقط. لا أشعر بالتعب، وإنّما أودُّ أنْ أرى ما إذا كان ذلك البائع الهندي الأصلع بشاربه الكبير كالذي في الرسوم المتحرّكة صادقًا أم لا. كلّما طأطاتُ رأسي محاولاً الرؤية تجتذبني اليدُ التي تحكمُ الإمساك بيدي دون أنْ تزعجني وتسير بي. لا بدَّ لي أنْ أقف، والآن. أهزُّ يديَ اليمنى بإلحاح، فترتبكُ اليدُ البيضاء، وأرفعُ رجلي اليمنى في الهواء كحرف اللام (L) في الإنجليزيّة الذي دائمًا ما أنساه عند اختباري في امتحان حفظ الحروف الإنجليزيّة. أرفعها عاليًا

متأهّبًا للانقضاض على شيءٍ ما. لا أكترثُ بالسؤال الذي أسمعه: «ما بك؟». أنزلُ رجلي بقوّةٍ على الأرض. أضغط أكثر واضعًا كلّ قوّتي في رجلي مطأطئًا رأسي باتّجاه أسفل قدميَّ. تنظرُ إليَّ عيونٌ قريبة، ويعودُ السؤال بنبرةٍ أعلى: «ما بك؟». يضيءُ لونٌ أحمرُ من بين مستطيل أفقي. أخفضُ رأسي أكثر بعينيْن واسعتيْن، وشفتيْن منفرجتيْن. أضربُ يدًا بيد، وأقفزُ في الهواء رافعًا يديَّ فيه كأنّي سأطعنُ السماء بهاتين اليدين الصغيرتين، ثم أصرخُ بصوتٍ عالٍ: «ياهوووو»!

أعيدُ الكَرَّةَ وأنا أدعو خالتي التي أفلتتْ يدها من يدي قبل قليل، وشيماء التي تمسكُ بمصّاصتها الصفراء بيمينها، وبيد أمّها، بشمالها على الطرف الآخر منّي، إلى رؤية المستطيل الأحمر المضيء في حذائي. أومئ إليه وظهري مشدود إلى جهة الحذاء الأبيض الذي علته بضع نقاطٍ سود في مقدّمته، وأرفع قدمي وأهبط بها ليضيء المصباح السرّي في حذائي، وأقول لهم: «انظروا! إنّه يضيء! ياهووو»! تسألني خالتي إنْ كنتُ لأجل هذا أوقفتها، فلا أجيب. أنظرُ في عينيْ شيماء محاولاً قراءة ردّة فعلها. تنظرُ إلى حذائها. ترفعُ قدمها وتضعها على الأرض بلطف فلا يضيءُ حذاؤها. ترفعها مرّةً أخرى وتضعها بقوّةٍ وهي عابسة الوجه كأنّها للتوِّ قد حُرِمَتْ من هديّتها، فلا يتغيّر أيُّ شيء. تنظرُ إليَّ بشفتيْن مزمومتين، وأنا أقهقه عاليًا مستفزًّا إيّاها بجملتي: «أنا فقط.. أنا فقط»!

تشيحُ شيماء بوجهها عنّي. أو هكذا تحاولُ، لكنّها تعودُ لتلقي نظرةً مطوّلةً عليَّ وأنا أمشي متمهِّلاً ورأسي يكادُ يكونُ بين ساقيَّ القصيرتيْن أتابعُ بعينيَّ كلَّ إضاءةٍ هنا أو هنا على يميني وشمالي. قدمايَ ترقصان بالضوء وكلّ الطريق أمامي أغنيات! تقولُ لي خالتي بأنْ أسرع في مشيتي بعد أنْ فهمتْ بأنّي لا أودُّ أنْ تمسكني. أحاولُ الإسراع وأنا أختبرُ قوّة الضوء. صدَّقتُ ذلك البائع الهندي الذي أخافني شاربه الأسود العريض، كما أخافتني صلعته التي رأيتها تلمعُ كلّها حين أحنى رأسه ليجلب لي مقاسي من الحذاء من الدرج الأخير في رفوف العرض. هذه هي المرّة الأولى التي أرتدي فيها هذا الحذاء، وكنتُ قد نسيتُ أنّه يضيء حتى تذكّرتُ ذلك حين حلَّ المغربُ وراحتْ المصابيح من حولي تضيء. لكنّها لا تضيء مثلما يضيء حذائي.

أسيرُ بحذائي العجيب وأنظرُ من حولي في وجوه الأطفال الذين يبقون أعينهم معلّقةً بذلك المستطيل السحري في قاعدة قدميَّ. أتظاهرُ بعدم انتباهي لذلك، وأتوقّفُ قليلاً كأنّي أودُّ مشاهدة أمرٍ ما لفت انتباهي، وذلك لأريهم قدرة مصباحي الخرافي مرارًا كلّما ضغطتُ على الأرض ورقصتُ بقدميَّ، ثم حين أتجاوزهم أضعُ عينيَّ في أعينهم لأرى أنَّها تنبضُ بشيءٍ ما يشعلُ، في داخلي، أشياء لها طعم «الزلابيا» التي نمرُّ بها الآن، وأريدُ أنْ أمدَّ يدي لقطعةٍ كبيرةٍ منها ممتلئة بذلك السائل

اللزج الذي أخطئ في اسمه دائمًا، ولا أخطئ أبدًا في تناوله كلّه. شيماء تقول لي: «خذ لي واحدةً»! خالتي تقول إنّها ستشتري لنا بعد أنْ ننتهي من عمليّة الشراء. أكتفي بالتلويح لشيماء لتراني وأنا أمشي بمصباحي المضيء. تسألني إنْ كنتُ أرى بفضله في الظلام، فأجيبها دون تردّدٍ بأنَّ ذلك شيءٌ أكيد، فتقتنع، وتعودُ لمصِّ مصّاصتها التي لمْ يبقَ منها سوى ثلثها. على أنّي أقومُ بإعادة تدوير السؤال في ذهني عمّا إذا كان، حقًّا، بوسع هذا المصباح الأحمر أنْ يضيء طريقي حين يتكثّفُ الظلامُ وأخاف المشي في وسط غابة الوحوش. أتخيَّلُ أنّه يزدادُ ضوؤه فأكون أمام كتلة ناريّة من الضوء تنبثقُ لتصلَ إلى السماء، لتجعل كلّ الوحوش والجِنَّ والسيّئين من الرجال ذوي القامات الطويلة والضخمة بشواربهم الكبيرة، وأولئك الذين لا شعرَ يغطّي رأسهم، والعجائز من النساء مثل جارتنا التي ضربتني قبل أسبوع بعمود مكنستها حين سقطتْ كرتي الزرقاء في بيتها، سيقعونَ صرعى من هذا الضوء وحده، وأنّي سأمشي في أمانٍ دائمًا ما دام هذا المصباحُ مضيئًا ويحذّرُ الأرض ومَنْ عليها كلّما تقدّمتْ رجلايَ.

تقولُ شيماءُ لأمّها بعد أنْ رمتْ عود مصّاصتها على الأرض بأنّها تريدُ واحدًا أفضل من هذا الذي لديَّ. تضحكُ خالتي وتجيبها بالموافقة، فتمدُّ شيماء لسانها في وجهي، وتضعُ إصبعها على أسفل عينها اليمنى لتوسعها، وهي تحاولُ

استفزازي: «سيكون لديَّ واحدٌ أجمل من هذا وسيكون ضوؤه أصفر. سيكون ضوؤه من الشمس مباشرة»!

تتقلَّصُ ملامحي. أخافُ من فكرة أنْ يكون لديها أفضل منّي. أقول لها إنّ ذلك مستحيل، وأنّه لا يوجد حذاء بمصباح أصفر من الشمس، وأشيحُ بوجهي عنها لأواصل انتصاراتي على الأطفال العابرين.

لا أحفلُ بالملابس التي تقيسها لي خالتي، ولا بألوانها. تسألني إنْ كنتُ قد أحببتُ هذه القطعة التي تأخذ في قياسها عليَّ بعد أنْ تضعها على ظهري. في الواقع، أنا مشغولٌ فقط برفع قدميَّ وإنزالهما على الأرض كلّما رأيتُ أنَّ الأطفال يمرّون بجانبي. حتى حين أجلستني على الكرسي رحتُ أضرب بقبضتي التي جمعتُ فيها قوّتي قاع حذائي ليضيء. خالتي تضحك وتنعتني بالمجنون، بينما شيماء تردِّدُ على مسامعي بأنَّ المصباح الأصفر أجمل وأقوى. تقولُ أيضًا إنّها لا تريدُ حذاءً بلون أبيض، وإنّما بلون وردي لا يليقُ إلّا بأميرة الأميرات وهي تفتحُ ذراعيْها في الهواء كأنّما ستحتضنُ بهما أحدًا سيهبط من السماء.

أتابعُ أعين الأطفال وهي تتبعني، فأقولُ لشيماء وأنا أرفع صدري إلى الأعلى وأخفضُ عينيَّ كأنّي لا أراها فيما أحدّجها بنظراتي من طرفٍ خفي، بأنّني لا أعرف لمَ كلُّ أعين الأطفال

موجّهة نحوي. تنظرُ إليَّ خالتي التي بدأتْ تطلبُ منّي الكَفَّ عن مشاكسة ابنتها ضاحكةً، وتضربني على يدي بلطفٍ، قبل أنْ تسحبني من يدي باتّجاه آلة (النُّفَيش) في عامّيّتنا، وبالفصحى: الفشار. لمْ يُخفني الواقف خلفها بصلعته الكبيرة. يسألني عن اسمي وهو يضعُ حبّات (النُّفَيش) في كيس بنّي، فلا أجيبه إلّا بضغطةٍ قويّة من قدمي اليمنى، أجعله بها ينظرُ إلى سلاحي السرّي. أراه ينظرُ إلى الضوء الأحمر فأحسُّ بأنّني انتصرت عليه، وبأنّه أدرك قوّتي. باسمًا يناولني الكيس الذي سقطتْ منه بعض الحبّات الصغيرة على الأرض، لكنّني أراه في صورةٍ أخرى: تحت قدميَّ بجسده الممتلئ يطلبُ عفوي حين يُلصِقُ كفّيْه ببعضهما بعضًا، ويهزُّ رأسه وهو يصرخ تارةً، ويتوسّلني، على أن أهزَّ رأسي يمينًا وشمالاً بعينين مغمضتين وأنا أجيبه رافعًا يديَ في الهواء كأنّما لأحذّره: «لا أحبُّ العفو عن الأشرار أصحاب الصلعات اللامعة». أرفع قدمي وأجعلها تغوصُ في كتلة اللحم المغطّاة بقميصٍ أخضر فاتح تفكّكتْ أزراره، لتسمح لحذائي أنْ يسحق كتلةَ الشرِّ هذه بضوءٍ ناريٍّ سحري!

كانتْ تلك الليلة ليلة عيد الفطر حين اصطحبتني خالتي مع ابنتها لتشتري لي ولشيماء ثياب العيد، بعد أنْ لم تتمكّن أمّي من مرافقتي بسبب ارتباطها بدوامها في المستشفى. ما زلتُ رغم هذه السنين البعيدة أتذكّرُ كلَّ تلك التفاصيل.. تذكّرتُ

ذلك في المسافة الزمنيّة التي استغرقتها خالتي لإحضار كعكة الشوكولا الدائريّة وتقطيعها، وإحضار شيماء أكواب عصير المانجو الذي أعدّته. الشيء الحسن أنَّ أحدًا لم ينتبه لذلك. فحتى زوج خالتي الذي جلس على الطرف الأيسر من الكرسي الذي يسعُ ثلاثة أشخاص لم يلحظ شرود ذهني. كان مشغولاً بالبحث عن قناة MBC التي ينسى رقمها دائمًا.

ـ سَتُسمّين المحلّ: مريم تِري؟

سألتها بعينٍ مغمضة وأخرى شبه مغمضة، بعد أنْ انتبهتُ إلى أنَّ خالتي قد وضعتْ صحني على طرف الطاولة ولم ألحظ ذلك. أطلقتْ ضحكةً قصيرةً متعرِّجة، قبل أنْ تجيب بلا وسْطَ اقتراح زوجها، ساخرًا، بأنْ تسمّيه: «مريم الشجرة»، واقتراحَ ابنتها بأنْ تسمّيه بكنيتها: «أم شيماء».

ـ «أمُّ شيماء للعبايات والتطريز»؟.. أممم.. «أمُّ شيماء للعبايات»؟.. أممم.. «عبايات أمّ شيماء»؟.. أممم.. «أمّ شيماء للتطريز والعبايات»؟.. أيّها أفضل؟

سألتنا خالتي وقد وضعتْ ذقنها على راحة يدها، فيما أصابعها الأخرى تعلو وتهبط على حافّة الطاولة الخشبيّة القريبة منها. فكّرنا جميعًا بصوتٍ مسموع عبر إعادة الخيارات كلّها. «أنا لا يهمّني ما سيكون اختياركم. المهمّ عندي أنّه في كلّ الأحوال يحمل اسمي المقدّس». قالت شيماء

ضاحكةً وهي تسند رأسها على كتف أمّها التي بادلتها الضحك. احترتُ بين خيارَيْن: «أمّ شيماء للعبايات»، و«عبايات أمّ شيماء»، وكدتُ أنْ أنطقَ بذلك لولا أنْ سبقني زوج خالتي، فأثنيتُ على اختياريه. ابتسم زوج خالتي مرتاحًا لذلك، بينما أيّدتنا خالتي وابنتها التي اقترحتْ، بعد لحظاتٍ قليلة لم نتمكّن خلالها من حسم الاسم المعتمد، اللجوء إلى القرعة أو التصويت. قال لها أبوها إنّنا ما نزالُ نملك الوقت، فيما استحسنتْ خالتي رأي ابنتها لحسم الاسم مبدئيًّا الليلة. قلتُ إنّي لا أحبُّ الاعتماد على القرعة في أيِّ شيء. القرعة حظّ محض، وأنا لا أحبُّ أنْ يحصل أمر بالحظّ، في الوقت الذي يمكن له أنْ يحصل بغيره. الحظّ ظلمٌ في كثير من الأحيان، ولهذا لا أفهم لماذا أولئك المحظوظون من الناس يبدون مغرورين بما لديهم بسبب الحظّ الذي جاءهم هكذا دون مجهود منهم ليس إلّا!

أيّدني زوج خالتي واضعًا كفّه في كفّي، فاقترحتْ شيماء اعتماد التصويت في هذه الحالة. إلّا أنَّ خالتي قالتْ إنّنا جميعًا لمْ نقرّرْ بعدُ أيًّا منهما.

«عبايات أمّ شيماء»؟

قلتُ محاولاً أنْ أبدأ مسلسل اعتماد كلِّ شخصٍ منّا لاختياره، بيدَ أنّي اكتشفتُ أنّي ربّما ساهمتُ بشكل مباشر أو

غير مباشر في حسم الاسم بعد أنْ كرّره زوج خالتي، فخالتي، فابنتهما على الترتيب.

بيد أنَّ خالتي نكزتْ ابنتها لتخبرها بأنْ تبعد رأسها عن كتفها، وقالتْ إنّها ستقترح اسمًا آخر. كنتُ قد فرغتُ للتوّ من تناول ما تبقّى من العصير حينها. نظرنا إليها جميعًا بفضول، وسألناها: «لمَ؟»، قبل أنْ نسألها عن ماهيّته. صمتتْ قليلاً، وأخذتْ إليها يدَ ابنتها التي بدا عليها أنّها انزعجتْ قليلاً لتصرّف أمّها الأخير. أمسكتْ خالتي بيد ابنتها، ووضعتْ إبهامها وسبّابتها على الإصبع الأخير ليد ابنتها وهزّته مرّتين أو ثلاث، وكرَّرتْ ذلك بانتظام مع سائر أصابعها، بينما كانت أعيننا على أصابع ابنتها كما لو أنَّ في اهتزاز الأصابع الاسم المقترح. توقّفتْ عند إبهام ابنتها، وثنتْ بهدوء أصابعها قبل ضمّها لها.

«شيماء..»!

«شيماء للعبايات»!

قالتْ خالتي متطلّعةً إلى ابنتها، متأمّلةً إيّاها وهي تسمع اقتراحها الجديد. ابتسمتُ وأخفضتُ رأسي بينما كانتْ شيماء تعانق أمّها وتقبّلها سعيدةً بها، وتقولُ لها إنّ الأوّل الذي يشيرُ إليها أجمل، وأنّها محتفظة بحقّها فيه، وأنّها تكون أكثر سعادةً حين تسبق كلمة «أمّ» اسمها لتعطيها وجودها. أمّا أبوها فقد

أسند ظهره إلى الكرسي وقال لهما بأن لا مشكلة لديه مع أيٍّ من الاسميْن، مراقبًا بملامح وادعة ذلك العناق وتلك الهمسات التي كانت تهمسُ كلٌّ واحدةٍ في أذن الأخرى وتتبادلان الضحك.

حسمتْ خالتي اسم محلّها باسم ابنتها الوحيدة التي ترى روحها ونفْسها ونفَسها فيها على حدٍّ تعبيرها، وقالتْ لي إنَّ عليَّ أمرًا لا فضلاً خطّ اسم المحلّ. ولأنّها لم تكن بحاجةٍ لمعرفة موافقتي الأكيدة، ولا لسماع حماستي لذلك، بعد أن اكتفتْ برؤية ملامحي وهي تتمدّدُ حينها، قالتْ لي إنّها تحبُّ ذلك الخطّ الذي في اللوحة الواقعة على يسارها. هذه اللوحة التي أهديتها إيّاها قبل ثلاث سنوات تقريبًا، بمناسبة عيد ميلادها. قلتُ لها إنّها بالخطّ الديواني الذي أعشقه. إنّها بهذا الخطّ الذي ترقصُ حروفه، وتبدو كعاشقةٍ تتملّى في عينيْ حبيبها.

«الديواني»؟! سألني زوج خالتي، فأجبته بهزٍّ رأسي موافقًا، ثم حدّثته عن هذا الخطّ الذي نشأ في الديوان السلطاني العثماني، وبقي الخطّ السرّي الخاصَّ به وبكلّ معاملاته. فكَّرتُ لوهلة في أولئك الخطّاطين الذين كان عليهم أنْ يتقنوا هذا الخطّ وينقشوه بيانًا وقرارًا للسلطان العثماني. عليهم أن يخطّوا بسرّيّة تامّة بهذا الخطّ الفريد. لا وجود لهذه

الأشكال من الحروف في كلّ أرجاء الدنيا إلّا في هذا الديوان الرحيب، وهو ما يعني أنَّ أيَّ حرفٍ به أو أيّ نقش بريء به سيكون جريمةً وخيانة. تخيَّلتُ أنَّ خطّاطًا من خطّاطي السلطان رغبَ في أنْ يُهدي حبيبته كلمة «أحبّكِ» في رقعةٍ جلديّة بالخطّ الديواني الذي هو مادّة عمله. ثم كان أنْ وقعتْ الرسالة في يد أحد عيون الديوان السلطاني، وتمَّ التوصّل إليه ليُنفَّذ فيه الجزاء. رأيته هناك مادًّا يده التي خطَّ بها رسائل سرّيّة من السلطان إلى مواليه في الأمصار، ثم إنَّ عليه الخروج من فيء السرّ باتّجاه هجير الخيانة التي لم يعرف أنّها ممكنة التوصيف لمجرّد خطّه به.

خرجتُ من دوّامة ذلك المشهد، وعدتُ لغزل ما تيسَّرَ لي من إيقاعات المديح لهذا الخطّ الأنيق. قلتُ لخالتي التي انتبهتْ لشرودي بأنّني أحسدُ الخطّاط التركي إبراهيم منيف الذي قعَّدَ قواعد هذا الخطّ في القرن التاسع الهجري. قلتُ لها إنّني ما زلتُ حتى هذه اللحظة أقفُ عاجزًا أمام فكرة أنْ يضعُ أحدٌ ما قواعد للخطّ. الخطّ شكل، والشكل خلق، ومَنْ يخلقُ خلقًا، فهو خالق، والخالقُ مبدع! كيف تجلّى هذا الخلق على هذا النحو من الدقّة؟ أيّة عينٍ هذه التي ابتكرتْ تلك الأشكال، وراحتْ تُبَسْتِنُ اليدَ موسيقى مرئيّةً ارتدتْ الحروف؟! ثم كيف بعد كلّ عمليّة الخلق تتمُّ عمليّة التقعيد والضبط في معايير دقيقة؟!

حين قرأتُ تاريخ خطّنا العربي ذهلتُ أمام أنَّ أغلبَ الخطوط قد تمَّ التقعيدُ لها بعد مرحلةٍ من عدم ضبطها في قياساتٍ ونسبٍ متساوية. كانتْ وحدها الأشكال ثابتة، حتى جاء ابن مقلة وحمل لواء التقعيد. التقعيدُ يعني أنْ يختبرَ الخطّاط بعينه كلَّ أحجام وأطوال ونسب الحرف، لينتقي منها الأجمل والأكثر ملاءمة. لا أحبُّ الحديث بفلسفة، أو أنْ أبدو بصدد تقديم درسٍ ما لأحدٍ لا سيّما في هذا العالم الروحاني والجمالي.. عالم الخطّ.. عالمي! لا أحبُّ ذلك، لكنّي مضطرٌّ للكشف عن بعض ما انتابني من أسئلة. تلك الأسئلة التي دثّرتْ قلبي بشهقات دهشةٍ طويلة، وأثّثتْ يدي بطاقةٍ صاغتْ حياتي كلّها، ومنحتها معناها.

لم ألتقِ بإبراهيم منيف يومًا، لكنّني سألته مرارًا بأيِّ عينٍ رأى فقدَّرَ أحجام الحروف في ذلك الخطّ السرّي!

«هل تغيَّرَ صوتي حقًّا؟!».

سألتُ محاولاً توضيب أنفاسي بعدما أخبرتني خالتي بذلك. قالتْ لي إنّه رقَّ وأصبحَ أكثرَ هدوءًا. لمْ أجبها حينها سوى بالابتسام، لكنّني أعلمُ لمَ يحدثُ معي ذلك؛ فحين أتحدَّثُ عن أيِّ شيءٍ يمتُّ للخطّ بصلة فإنّني أتحدَّثُ بلغةٍ أخرى أكثر اقترابًا منّي. كأنَّ الخطَّ أنا، أو أنّني هو محاولاً إلقاء تحيّةٍ متمهّلة!

حين عدتُ للحديث عن تلك اللوحة التي كتبتُ فيها آياتٍ من سورة الرحمٰن طلبتْ منّي شيماء أنْ أصفَ هذا الخطّ في جملةٍ من ثلاث كلمات، وقد وضعتْ يدها على شفتيها، كأنّما لئلّا تبوح بها. ضحكتُ، وسألتها إنْ كانت لا تزال، حقًّا، تلعبُ هذه اللعبة بعدُ. تدخَّلَ زوج خالتي ليقول إنّه يسمعها يوميًّا من المخلوقتيْن المجنونتيْن اللتين تعيشان معه، واللتين لا تكبران أيضًا.

تطلّعتُ في عينيْ ابنة خالتي الصافيتيْن. «نعم، إنّها لا تكبر» ـ قلتُ في نفسي، وتبدَّتْ أمامي صورتها حين كانتْ تسألني، قبل سنين بعيدة، فيما تلعبُ بجديلتيها السوداويتيْن الطويلتين: «صِفها في كلمة»!

«حلوة»!

أجبتها فيما كنتُ أمضغُ الحلوى الحمراء الساخنة وأستطعمها.

«حلوة»!

كرَّرتُ فيما كنتُ أتطلّعُ في عينيها لأرى إنْ كنتُ قد نجحتُ في امتحانها أم لا.

ـ «وفي كلمتيْن؟».

ـ «حلوة وجميلة!».

ـ «جميلة»؟!.. «لا نقول عن الطعام إنّه جميل!».

ـ «لذيذة»؟.. «حلوة ولذيذة؟».

ـ «ههههه.. شاطر شاطر.. اممم.. وفي ثلاث؟».

ـ «حلوة ولذيذة.. و.. و.. و.. و.. سعيدة؟».

ـ «لا يا شاطر.. خطأ.. حاول مرّة أخرى»!

ـ «اممم.. عجيبة؟».

ـ «اممم.. لا بأس..

وفي أربع»؟

ـ «أربع؟! أربع؟!

اممم..

...».

ـ «ما بك؟ هيَّا حاول! ستخسر!».

ـ «امممم.. امممم..

....».

ـ «عجزت؟».

ـ «...».

ـ «إذن خسرت. عقابًا لك هاتِ قطعة الحلوى المتبقّية!.. ههههه».

كنتُ دائمًا أخسرُ عند الوصول إلى أربع كلمات. لماذا. لستُ أدري. لكأنّما تفرُّ منّي الكلمات، أو لستُ أجدها. عمدتْ شيماء المشاكسة، في مرّاتٍ أخرى، إلى اختباري بالأربع كلمات مباشرة، ولا أتذكّرُ أنّني استطعتُ النجاح في أيٍّ منها مرّةً واحدة.

الآن، على الرّغم من تغيّر ملامحها وملامحي عادَ السؤالُ من جديد، بذات تقويسة شفتيها، ونبض عينيها ذاته. كلُّ ما فعلته هو الضحك. الضحك والحديث عن ذلكِ الموقف كمثالٍ على هذه اللعبة التي هي سيّدتها. الضحك، أيضًا، للتهرّب من الإجابة التي لن تكون أفضل حالاً من كلِّ إجاباتي السابقة المتنوّعة على كلّ أسئلتها من هذا النوع. صحيحٌ، أنّها سألتني التوصيف في ثلاث كلمات، على أنّها سرعان ما ستقفزُ إلى الكلمات الأربع حيث سأقعُ في فخّ الهزيمة. لهذا وددتُ تجنّب ذلك، لكنّني لمْ أستطع منع نفسي من الإحساس بأنّني الآخر لمْ أكبرْ حين تذكّري بأنّني على الرّغم من كلّ تلك السنين لم أستطعْ أنْ أحلَّ مشكلتي مع توصيف الأشياء بأكثر من ثلاث كلمات!

كانتْ خالتي قد قبلتْ تحدّي ابنتها في سبع كلمات، وبينما هي تحاولُ حاولتُ في سرّي أنْ أتذكّرَ لعبةً أخرى كنّا نلعبها في طفولتنا، لكنَّ الغلبة لي فيها. على أنَّ زوج خالتي

همس قريبًا منّي: «لو فكّرتُ في لعب هذه اللعبة مع الأولاد لكسَّرَ أحد الخاسرين منهم زجاج سيّارتي»!

كلّ الأحاديث في هذه الدار لها نكهة مطر ناعم ومستمرّ في يوم صحو ربيعي، وكمْ تبدو السماءُ قريبةً من كلّ ما يجعلُ قلبي، هنا، يغرِّدُ بكلّ ألوان قوس قزح!

«هذا البيتُ بيتنا، ولنْ نبيعه»!

ربّما بدوتُ حادًّا، بعض الشيء، عندما أجبتُ الرجل الذي لا يُحسنُ إلّا استفزازي بعرضه السخيف ممسّدًا لحيته. على أنّي لا أحفلُ لذلك، وغير معنيٍّ بما سيأخذه عنّي من انطباع. كان قد اشترى بيت جارنا السابق، وقام بتأجيره كلّه لعائلة إنجليزيّة، ومن يومها وسعيه لا يتوقّف عن محاولاته شراء البيوت المحيطة بذلك البيت، ومن ضمنها بيتنا. لا وقتَ محدّدًا لزياراته المتكرّرة، ولا مكان لرؤية ذلك الوجه المدّعي سوى امتداد هذا الشارع الفرعي خلف مدرسة مدينة حمد الثانويّة للبنات حيث يقعُ بيتنا.

كنتُ قد نزلتُ من سيّارتي حين هرع إليَّ بعد خروجه للتوِّ

من بيت جارنا «أبو محمّد»، مبتدرًا إيّاي بسلام ملوّن بالنفاق.

ـ «لمْ تردّوا عليَّ بعدُ. . هل وافقتم؟».

«لمْ تردّوا عليَّ بعد»؟! كلُّ تلك الردود عالية النبرة بعد المرّات الثلاث أو الخمس الأولى التي اتّسمتْ باللطف لا يعدّها ردًّا! تجاهلها كلّها، وكأنّها لمْ تكن. كأنّه بالأمس فقط عرض طلبه، وما زال، حقًّا، في انتظار الجواب! هذا التجاهل لا يتوقّفُ عند حدود السؤال الأوّل، بل إنّه، وبعد كلّ الردود المتكرّرة بحدّةٍ أكثر، يعودُ في النهاية، ليقول جملته التي لا تقلُّ استفزازًا عن الأولى: «طيّب. أنا في انتظار ردّكم إذن»!

ما لمْ أفهمه هو لمَ كلّ هذا الإلحاح، ثم ما هذه القدرة على امتصاص كلّ الكلمات الجافّة، والملامح المكهربة، والنظرات الحادّة، ليحافظ على هدوئه بتلك الصورة. لكن هذا لم يدرْ بخلدي طويلاً، لأنّني اعتدتُ بعد كلّ ردٍّ على هذا الرجل أنْ ألقي نظرةً طويلةً على بيتنا. كأنّما لأحاول رؤية ما يراه فيه هذا الرجل ولا أراه.

طابقان كاملان مطليّان باللون الأبيض. في وجه الطابق الثاني، وعلى الجهة اليمنى حيث النافذة الكبيرة المستطيلة، تقع غرفة والديَّ، أمّا في الوسط فشرفة صغيرة من الخارج لا نستعملها عادةً، وممرٌّ في الداخل. في الجهة اليسرى غرفة

أختي الكبرى علياء، وفي الظهر غرفتي يمينًا، وغرفتان أصغر من غرفتي: إحداهما لأختي الصغرى سارة والأخرى شاغرة.

أمّا في الطابق الأرضي فالصالة واقعة جهة اليسار، بينما مجلس الضيوف جهة اليمين، وبينهما ممرٌّ يؤدّي إلى المطبخ يسارًا، وغرفة المعيشة يمينًا. عتباتُ السلّم الواسعة تفصلُ بين حدّيْ صالتنا ومطبخنا. أكثر ما أحبّه في بيتنا اتّساعه، وألوانه الهادئة. تنتابني حين أدخله أحاسيسُ متناقضة لا أعلم مبعثها. لا علمَ لي بعلاقة المرء بالمكان، لكنّي على علمٍ بأنّي كلّما هممتُ بالدخول إليه بعد زيارة بيت خالتي أحسستُ بنبض شيءٍ ما لا توصيفَ له. لستُ مبالغًا في ذلك، حيث إنَّ ثمّة ما هو هناك في أعماقي يتحفّزُ ويتوثّبُ ولا أهتدي إليه!

ثمّة أسئلةٌ تعلكنا، وتعبِّدُ طمأنينتنا الهشَّة بما تستبسلُ به من انفجاراتٍ عاجلة. ثمّة أسئلةٌ لأجلها، عبثًا، نراوغ ونحنُ نعيدُ على أنفسنا طرحها لعلّنا أغفلنا بصيص إجابةٍ هنا أو هناك، أو نسيناها في زاوية مواربة على أرصفة لا تثير الانتباه، لتكنسها احتمالاتٌ مبعثرة.

لمْ أقلْ ذلك حينها، بَيْدَ أنَّي قلته، حتمًا، في داخلي بأبجديّةٍ أخرى أقلَّ مباشرة، وأكثر اقترابًا منّي. قلتُ ذلك أو ما هو قريبٌ منه، غالبًا، بينما كنتُ أغيِّرُ ملابسي، أو حينما تمدّدتُ على سريري بفراشه الكحلي، وحدَّقتُ في السقف

الذي بدا أكثر عُلوًّا من أيِّ وقتٍ مضى؛ لعلّي أبصرُ ما لمْ أبصره منذ دقائق.

«أين الخطأ»؟!

صرختُ في نفسي التي بدتْ كأعماق بئر مهجورة. صرختُ مرارًا وبصورةٍ أشدَّ حتى وإنْ لمْ يسمع الهواء ذلك. كأنّي كنتُ أجرِّبُ صوتي في ارتفاع منسوب انفعاله بعد فترة هدوءٍ طويلة. زوْبَعني السؤالُ حدَّ أنّه لمْ يجعلني أشعل النور في غرفتي، ولا لأراجعَ التصاميمَ المبدئيّة للوحات معرضي بعد شهرين. كأنّه أرادني أنْ أبقى أنوسُ بيديَّ في حلكته، أو أنْ أتوقّفَ عند عتبة ما حدث مهما كان عَرَضيًّا ومبتذلاً، ولا أخطو خطوةً واحدةً باتّجاه شيءٍ آخر أبدًا. تمدَّدتُ بإهمال، ورميتُ جانبًا جهاز الريموت كونترول الذي كان غافيًا على يساري. فيما حاولتُ أنْ أعيدَ مشاهدَ ما جرى وأتحكّمَ بها لأرى ما وددتُ رؤيته!

كنتُ قد وضعتُ مفتاح سيّارتي برأسه المطّاطي الأسود شبه البيضاوي على المنضدة القريبة من التلفزيون، حين أقبلتْ أمّي وفي يدها كوب القهوة الزمرّدي لتسألني بعينين فضوليّتين عن سبب تأخّري، فوضعتُ كفَيَّ على بطني ورحتُ أرقّصهما الواحدة تلو الأخرى؛ لأخبرها بأنّني كنتُ عند خالتي. نظرتْ أمّي إلى كفيَّ نظرةً كأنّها طعنة، فأنزلتهما ثقيلتيْن مثخنتيْن.

بلّغتها سلام وأشواق وتحيّات خالتي، وأنّها تنوي إقامة عزومة غداء لها قريبًا. أجابتني باقتضاب شديد، قبل أنْ تسألني بعد فترة صمت، وبصوتٍ مدجّج بنبراتٍ شائبة: «وتعشّيت؟».

هذا السؤال مضحكٌ نوعًا ما. إنّه من الأسئلة التي يسألها المرء وهو على علم مسبق بإجابته. لكأنّما يسألُ ليقيمَ الحجّة، أو ليدلي المرء بالاعتراف الصريح والمباشر، من دون مواربة، أو لربّما بغية ترقّب إجابة أخرى متمنّاة على غير ما هو متوقّع!

على الرّغم من كلّ ذلك يجدُ الطرفُ الآخر نفسه ملزمًا بالإجابة البديهيّة الحاسمة. وأنا، بالطبع، أجبتها. أجبتها بما لا بدّ أنّها عرفته وكانت تعرفه قبل سؤالها من كفّيَّ المتراقصين على بطني، ومن عينيَّ حين اتّسعتا دهشةً من هذا السؤال. لمْ تعلّق. لمْ تقلْ شيئًا حتى وضعتْ كوب الشاي الذي اندلقتْ منه بضع القطرات الحمراء على المنضدة، وعلى الجزء المطّاطي من مفتاح سيّارتي. حاولتُ الكلام تلطيفًا، لكنّي توجّستُ، فأحجمتُ. سوَّتْ ظهرها، وتأمّلتني للحظة بوجهٍ جافّ تتقنه في لحظاتٍ كهذه، بينما كنتُ أراقبها بعينين مترقّبتين لشيءٍ ما لم أعرفه تمامًا، ولم يكن بوسعي تقديره حتى، لكنّي قرأته بعينين عميقتين، كأنّي للتوِّ قد عدتُ بملابس متّسخة جرّاء لعبي مع الأولاد في الخارج، وعليَّ انتظارُ عقابي الذي غالبًا ما كان مسح أرضيّة وعتبات بيتنا المكوَّن من طابقين؛ لا لشيءٍ سوى لأتعلّم قيمة النظافة!

سألتني لِمَ لمْ أخبرها بذلك. لمْ تمنحني الفرصة للإجابة. تابعتْ سؤالها بصوتٍ أرفع عن مصير العشاء الذي لم تخبرني ما كان في الثلّاجة، وعن سرٍّ هذا التكتّم الشديد على كلّ زيارة منّي لبيت أختها، وعن هذا التعلّق الطفولي بـ «باستا» خالتي دون أيِّ باستا أخرى، سواء تلك التي تحضِّرها هي أو عمّتي أو أيَّ مطعمٍ من مطاعم هذه البلاد أو من الجحيم ذاته!

كان صراخها عاليًا حدَّ أنّي وقفتُ بملامح مغسولة بعلامات الاستفهام والتعجّب عمَّا إذا كانت هذه الأسئلة، حقًّا، في موضعها الصحيح، أو أنّها جادّةٌ فعلاً بطرحها كلّ تلك الأسئلة. كانت تمدُّ صوتها في آخر كلمة من كلّ سؤال. حسبتُ أنّها ستمنحني الفرصة للإجابة أو للاعتذار، بيد أنّها كانت تسترسلُ بيدين عصبيّتين تهتزّان في الهواء كأنّهما تلطمانه. أو ربّما تلطماني أنا. نعم، أنا.. أنا الذي أذنبتُ ذنبًا لمْ أعرفه، وحاولتُ في تلك الليلة الطويلة التي ما نمتُ فيها أنْ أتبيّنه.

كنتُ صامتًا طيلة عاصفة الغضب تلك. لم أستطع النطق أمام ما رأيته من فورةٍ لمْ أعهدها من أمّي إلّا لمامًا. قبل سنواتٍ قليلة غضبتْ منّي بصورةٍ أشدّ من هذه اللحظات لكنّها كانتْ حازمة. بقيتْ حتى اللحظات الأخيرة تصوِّبُ عليَّ كلماتها الحادّة، معربةً من خلالها عن بالغ خيبتها منّي.

أثخنتني بكلماتها ومضتْ بعد نظرةٍ مزدرية. أمّا اليوم فثمّة نبرة أخرى مختلفة. نبرةٌ فاجأتني وأنطقتني دون أنْ أفهم حقيقةً ما كان يجري أمامي. كانت أمّي تصرخ وتصرخ بشكلٍ أكبر كلّ مرّة. لا أتذكّر كم من المرّات أعادتْ الجُمل نفسها وكأنّها تقولها للمرّة الأولى وبانفعالٍ متعاظم. لا أتذكّر كيف تداعتْ في حميّا الهجوم العنيف على الكرسي على يمينها وراحتْ تغرق في بكاءٍ مرير. كانتْ تنشجُ بشكلٍ غير اعتيادي. لا أتذكّر متى كانتْ آخر مرّةٍ بكتْ أمّي فيها، لكنّني متأكّد من أنّها لمْ تبكِ هكذا مطلقًا. ربّما بكتْ من قبل بشكلٍ أشدّ لكن ليست بهذه الغرابة أو في موقفٍ مشابه. وجدتني حائرًا أمام المشهد. حاولتُ عبثًا استيعاب ما يجري أمامي حينما هرعتُ إليها وسألتها الكفَّ عن البكاء. حاولتُ بصورةٍ أكثر إلحاحًا حينما مددتُ إليها بعلبة المحارم ورفضتها من يدي، قبل أنْ تتركني مسرعةً إلى غرفتها. توجّهتُ إلى غرفتي على وقع صورتها: وهي ترفع يدها مهدّدةً بعينين حادّتيْن ونبرةٍ جافّة قبل أنْ توقفَ يدها كأنّما عنّتْ لها فكرةٌ جعلتها تنهار. لمْ تجبني عن سبب كلّ هذا البكاء فجأة. ليس من عادتها ذلك. لم توجّه لي أيّة إشارة تدلّ على أنّني السبب في ذلك. فقط كانت تدفن وجهها في كفّيْها وتنتحب من دون أنْ تعبأ بي وبأسئلتي المعذّبة إيّايَ والتي جعلتني أفكّرُ في كلّ الجهات لعلّي ارتكبتُ أشياءً أخرى هي السبب الحقيقي.

أنا شابٌّ أتقنتُ أشياءَ كثيرةً، لعلَّ من أهمّها إغواءَ قصبتي أو فرشاتي بمشاكسة الحروف، وقَطَّ قصبتي جيّدًا واختبارها في امتحان جودة العزف على أديم الورق، وريّها قليلاً من المِداد قبل أنْ تُرَوِّي فضاء الدهشة، ووشوشتها بما ينبغي لها من حروف الوَله، لتغرِّدَ في أعين كلّ مَنْ يراها بترانيمَ عاشقة. أتقنتُ ترفَ مداعبة كلّ لوحاتي بألوان قلبي متغنّجةً بفرشاةٍ لعوب. بيد أنّي لمْ أتقنْ، البتّة، الجلوسَ هكذا، مستسلمًا لدهشةٍ عمياءَ.

حدَّقتُ في السقف، في هذا المستطيل الأبيض الذي بدا بحرًا لامتناهيًا. أمواجه أفكارٌ شتّى. حاولتُ استيعاب الموقف أوّلاً فلم أتمكّن من ذلك، فلجأت إلى محاولة أنْ أبرِّر لها بأيِّ مبرّرٍ كان. ليستا متخاصمتيْن طبعًا، وإلّا لكانت أخبرتني بذلك كما هي عادتها حين تتّخذ موقفًا ما من أيِّ شخصٍ فإنّها تعلنه من دون تردّد، حتى إنْ كان حدثًا صغيرًا بينها وبين إحدى أخواتي. لمْ تقلْ إنّها كانت تودُّ المجيء معي إلى بيت خالتي ومنعتها، كما لم تشرْ إلى هذه الفرضيّة إشارةً واحدةً حتى. ثم إنّي لمْ أفهمْ سرَّ ذلك النسف التامّ لذهابي من أصله إلى بيت خالتي، فضلاً عمّا إذا كان ذلك بنية تناول «الباستا» أم لا. لمْ أدرِ حقًّا إنْ كان ذلك كلّه حقيقة أم مجرّد تمثيل. وددتُ من كلّ أعماق قلبي أنّه كان مجرّد مقلب كالذي نراه على شاشة التلفزيون لكنّه لم يكن كذلك للأسف.

أجلتُ عينيَّ في غرفتي. الظلمة حالكة، صحيح، غير أنّي محبٌّ لمتابعة التماع الأشياء في الظلام الكثيف، هناك حيث تعلن عن نفسها بضوءٍ شحيح، وتتمرَّدُ على هيمنة السواد. زجاجات عطوري التمعتْ كلّها، وفي وسعي ذكرها الواحدة تلو الأخرى. كذلك مقبض الباب، وأزرار قميصي، ودرع الشكر والتقدير على مشاركتي في أحد المعارض.

بغتةً أنزلتْ قبضة الباب ثم رُفعتْ، وانتصبَ خطٌّ مستقيم من الضوء. أغمضتُ عينًا فيمَا حاولتُ بالأخرى تبيّن الشخص القادم إليَّ. وبَّخته على هذا الدخول المباغت، لكنّه بدا مدفوعًا بالتأكّد من وجودي الذي تحقّقَ منه حين رآني رافعًا يديَّ وباسطًا كفّيَّ على وجهي، فأطلق كلمته المعهودة بعد كلِّ فعلٍ يعلمُ في سرّه أنّه ليس بريئًا تمامًا: «آسف». ثم ركض باتّجاه الباب الذي لمْ يكدْ عمود الضوء قد أخذ في الذبول حتى عاد أقوى في شكل مستطيل أفقي، ثم خبا على وقع صوت الباب، فصوت الضغط على أزرار المصابيح، فصوتُ أختي أمٍّ ذلك الطفل الآسف، الطفل المخابراتي بامتياز. الصوتُ الأكثر إزعاجًا من كلّ تلك الحركات المفاجئة. الصوتُ الهجومي الذي لا يحبُّ أنْ يمنح فرصةً للكلام. هي، أيضًا، مدّتْ في أواخر أسئلتها نبرتها ثم رفعتْ درجة نبرتها تدريجيًا حتى قصفتني بأسئلتها التي لمْ أملك أيًّا من إجاباتها:

«ماذا فعلتَ بأمّك؟ لماذا؟ متى ستفهم؟ متى ستكبر؟».

كلُّ ما فعلته هو الاكتفاء بالتحديق في وجهها المضطرب والمتشنّج. حتى شعرها بدا في مزاج متوتّر، ولمّا قلتُ لها بأنْ لا علمَ لي بكلّ ما حدث، ولا بما فعلتُه من أمرٍ أغضبَ أمّنا كلَّ هذا الغضب، عادتْ لتقصفني بأسئلةٍ أشدَّ على نحوٍ لمْ أتوقّعه. سألتها أنْ توضّح لي فأجابتني أنّها لا تملك توضيحًا لما هو واضح، لكنّها أحجمتْ عن ذكر هذا الواضح الذي لا يحتاج للتوضيح.

وقفتْ بعد أنْ أنهتْ قصفها ذاك تعاينني بعينيْن ثابتتيْن بإصرار، لكأنّها كانتْ تعاينُ حيرتي ودهشتي، أنا الذي تهتُ في دوائر متّسعة من متاهة كبرى، وما كان كلّ صراخ أختي الكبرى التي هجمتْ عليَّ على هذا النحو إلّا مقدّمةً لشيءٍ أكبر لمْ يخفني حينها بقدر ما جعلني أرتدُّ أكثر محاولاً، عبثًا، الإمساك بخيطٍ موصل إلى أصل الحكاية، لكن ليس قبل إثبات أنّني لستُ معدومَ الصراخ، فعدّلتُ من جلستي بسرعة، وقمتُ أصرخُ في أختي بأنْ تكفَّ عن التدخّل في كلّ شيء، وأنْ تكفَّ عن الصراخ في وجهي، فقد شبعتُ، حقًّا، من كلّ صراخها في الماضي حين كانتْ تدمنُ ذلك من دون أدنى سبب. من ذلك حين صرختْ في وجهي أمام أبي في يوم العيد لمجرّد مطالبتي بأنْ تكون عيديّتي درّاجة هوائيّة، وحين رددتُ

بالصراخ حُرِمتُ منها حتى هذا اليوم الذي أصبحتْ فيه تأتينا في زيارات دائمة وسريعة مصطحبةً فيها ولدها الجاسوس الذي ترسله دومًا ليستطلع المشهد قبل خوضها فيه، ومتحدِّثةً عن زوجها ومشاريعه الأخيرة، وعن إرهاق العمل في العيادة، بينما أنا ما زلتُ في غرفتي هذه.

كنتُ قد أعددتُ نفسي لجلسةٍ مشابهة لتلك الجلسة الجميلة في بيت خالتي مع أهلي، لولا حدوث ما حدث بشكل مربك وغير متوقّع.

لا تحتفظ ذاكرتي بصورة جيّدة للوقت، ولهذا فلستُ أدري، على وجه التحديد، كمْ من الوقت مرَّ وأنا محدِّقٌ في سقفٍ لا يوقفني على فكرة، ولا يرتفع بي نحو أخرى، ولا يهبط بي نحو أقلَّ من كلّ ذلك تبسيطًا لما حدث، قبل أنْ أستسلمَ إلى نوم لمْ يمنع فيه عقلي بصورةٍ قاطعة من متابعة التفكير، ولو على شكل أحلام!

«إنّما أحادثكَ لترى، لا لتحادِثَ. فإذا حادثتكَ رأيت، فإذا رأيتَ، فلا حديث!».

لكنّني لمْ أرَ، ولمْ أحادث كما وددتُ، ولمْ أستطع الحديث الذي تمنّيته. لمْ يحدّثني أيضًا مثلما أردتُ. لا أعلمُ لمَ رغم أنّي حادثته بكلّ ما أوتيتُ من أدوات ولغات. النفريُّ الذي قال تلك الجملة التي أتذكّرها دومًا في مثل هذه الأوقات لا يعلمُ أيَّ حديثٍ أريد، ولا مَنْ يُحادثني وأحادِثه. كان هو هناك في مقاماته، بينما كنتُ أنا هنا في مقام التجربة والحيرة والسؤال. أمام تركيبتي الجديدة لمدادي، تلك التي حضّرتها بالاعتماد على أكثر من وصفة من وصفات تحضير المداد القديمة. لمْ أعلمْ حينها ما إذا نجحتُ أم لا في تحضيره بالشكل الجيّد. كنتُ قد أنهيتُ للتوّ تجريب الوصفة الأولى

التي وجدتها لابن مقلة في نسخة الخطّاط محمّد الشافعي المنسوخة عن كتاب ابن مقلة المفقود، «رسالة في علم الخطّ والقلم».

بينما كنتُ أختبرُ كثافته، سألته عن سرّه رغم أنّي حضّرته بنفسي. حادثته ورجوته أنْ يبوح لي بسرّه أو أنْ يكون كما أحلم وما أريدُه منه. لم أطمئن كثيرًا إلى النتيجة. بدتْ لي الكثافة غير جيّدة. غطّستُ رأس قصبتي في المحبرة الدائريّة ذات الإطار الفضّي الرفيع التي جلبتها من تركيا. حدَّقتُ في رأس القصبة لأرى لون المداد قبل أنْ أجعله على الورقة. بدا أسودَ فاحمًا، لكنّه لم يكن كذلك تمامًا حين قمتُ بخطّ حرف النون بشكلٍ ممدود، ولا حين جرَّبتُ كثافته مرَّةً أخرى عبر خطّ حرف الجيم المجموع. خشيتُ من احتمال نسياني لخطوةٍ هنا أو هناك أثناء تحضيري للمداد. تركتُ المحبرة مفتوحةً إلى جانب قلم الطومار ذي المليميترات الأربع الذي أفضِّله لاختبار جودة أيِّ مداد. أزحتُ الورقة البيضاء المصقولة جانبًا على وقع التماع حرفيْ النون والجيم من الأعلى، ووضعتُ مكانها نسخة ابن مقلة التي تحصّلتُ عليها هديّةً من أستاذي القدير الخطّاط العراقي محمّد البغدادي قبيْل عودتي إلى البحرين وتخرّجي من أكاديميّة الفنون الجميلة، قبل ثلاثة أعوام. ما زلتُ أتذكّره بوجهه المتأهّب لأيِّ عملٍ وبملامحه الهادئة التي كانت تختفي حينما يبدأ يخطُّ. كان يأمرني

متجهِّمًا: «لا تنظرْ إليَّ! انظرْ إلى يدي والخطّ فقط»، كأنّما كان يشعر أنَّ وجهه يتعرّى حين يخطّ.

حين ناولني النسخة في محترفه بيده الغليظة التي لا تشي بيد خطّاط، قال لي: «هذا كنز وسرٌّ من الأسرار فإيّاك أنْ تفرِّط به، ففيه ما لمْ تعلمه في حياتك. لولا علمي بولعكَ بالأحبار، لما أهديتكَ إيّاه». كان محقًّا في كلّ ما قاله. هذا كتابٌ كنز سيوصلني إلى كنز الكنوز الذي أحلمُ به. وضعتُ يدي على الورقة الحمراء التي دسستها علامةً على الصفحة التي أريدها وأعدت قراءة الوصفة:

«أجود المداد ما أخذ من دخان النفط بأن يؤخذ منه ثلاثة أرطال فيجاد تخلّصها وتصفيتها وتلقى في طنجير ويصبّ عليه من الماء ثلاثة أمثاله، ومن العسل رطل واحد، ومن الملح خمسة عشر درهمًا، ومن الصمغ المسحوق وزن عشرة دراهم. ويساط على نار ليّنة حتى يثخن جِرمه ويصير دُهنه كالطين ويترك في إناء ويستعمل عند الحاجة بقدر ما يكتفي به».

«حسنًا، هذه هي الوصفة»، وشرعتُ أتأكّد من تطبيقها حرفيًّا. ثلاثة أرطال من دخان النفط أوّلاً. لا بأس. الرطل نصف كيلو جرام. كنتُ متأكّدًا من أنّي وضعتُ كيلوًا ونصف الكيلو منه. رطلٌ من العسل يعادل نصف كيلو وهو المقدار ذاته من هذه العلبة التي أحضرتها من السوق الشعبي. يبقى

تقدير زنة الدراهم الذي كان أكثر ما يثير قلقي. وزن خمسة عشر درهمًا من الملح، ووزن عشرة دراهم من الصمغ المسحوق. بحسب بحثي، فإنَّ تقدير وزن الدرهم الواحد يعادل ثلاثة غرامات. لكن هذا التقدير يبقى تقديرًا، فثمّة آراء مختلفة تنحو إلى أنْ يكون أكبر من غرامين ونصف الغرام وأقلَّ من ثلاثة. هذا الفارق ليس بسيطًا كما بدا لي أوّل مرّة، لكنّي استخدمتُ حيلة لتذويب هذا الفارق بقليل من الماء.

أيكون الخلل في عمليّة سوْط المداد على النار الهادئة؟ لكنّي تذكّرتُ أنّه صار غليظًا بعد فترةٍ من ذلك، وصار طينيًّا. أين الخلل إذًا؟ سألتُ نفسي مجدّدًا وقمتُ بتغيير خيوط الحرير التي وضعتها داخل المحبرة، بأخرى أكثر سماكةً لعلّها تسهم في تجويد مستوى الكثافة، وجرَّبتُ للمرّة الثالثة فخطّطتُ حرف السين. كان سنّه الأوّلُ بلونٍ داكنٍ تمامًا، فيما جاء سنّه الآخر أقلَّ دكنةً، قبل أنْ يتدرّجَ اللون تمامًا في قاعدة الحرف وصولاً إلى آخر مَدَّةٍ فيه. بدتْ الكثافة أجود، لكنّها أقلّ ممّا تخيّلته للون هذا المِداد.

لمْ أكنْ راغبًا في أنْ أعيدَ تحضير هذا المِداد من جديد بعد أن تطلّب تحضيره أسبوعًا كاملاً. قلتُ في نفسي إنّي لا أريدُ هذه التركيبة وحدها. لمْ أزلْ أريدُ خلطها بأخرى لأحصل ربّما على لونٍ جديد أو تركيبة مستخلصة تحقّقُ لي لون المِداد

أو كثافته التي أطلب. أحكمتُ إغلاق المحبرة بغطائها الفضّي، ونظّفتُ قصبتي من بقايا الحبر العالق برأسها بالمنديل، ثم وضعتها في علبة القصب على يساري. تناولتُ علبة المِداد الترابي الذي أخذت مادّته من طين مزرعة عمّي في قريتنا. كان الطين مائلاً إلى الصفرة، وهذا ما أردتُ لأحصلَ على اللون الترابي. أتذكّرُ جيّدًا أنّي خلطته بالماء في إناء كبير، وتركته يترسّبُ فترةً قصيرةً قبل أنْ آخذ الماء الخابط في إناءٍ آخر ليجفَّ تحت أشعّة الشمس. أخذتُ القشرة الملوّنة المترسّبة في قعر الإناء، وطحنتها لتصبح ناعمةً جدًّا، قبل أنْ أطبِّقَ عليها ذات وصفة الحبر الأسود. كانتْ علبة الحبر الترابي على يمين علبة الحبر الأسود. أحضرتُ علبةً نظيفةً ووضعتها في المسافة الفاصلة بينهما. لم أردْ أنْ أخلطهما معًا مباشرةً. وضعتُ أوّلاً بضع قطراتٍ من الحبر الترابيِّ، قبل أنْ أضيفَ قطراتٍ من الحبر الأسود. تناولتُ فرشاةً وقمتُ بمزج الحبريْن معًا بهدوء. أحبُّ أنْ أمزج الأحبار بالفرشاة. أحسّها أكثر شاعريّةً من أيِّ شيءٍ آخر. بدا اللون الترابي داكنًا بصورةٍ لمْ أحبِّذها. أضفتُ قليلاً من الحبر الترابي إلى الحبر الوليد. قلّبْتُه بفرشاتي البنِّيّة النحيفة. تركتها على الصحن البلاستيكي لئلّا تسيل بضع قطراتٍ من الحبر على الطاولة. تناولتُ قصبتي وغطّستها في الحبر الذي أصبح في منطقة وسط من درجات اللون الترابي. حرفُ الياء الممدود بخطّ الثُّلُث أخبرني أنَّ

درجة الحبر وكثافته جيّدة. إلّا أنّي قمتُ بخطّ مجموعةٍ من النقاط لأطمئنَّ إلى النتيجة بشكل أفضل. أصبحتْ الوصفة جاهزةً عندها كما تخيّلتها في محاولتي السبعين أو الواحدة والسبعين. هذه المرّة مزجتُ وصفتيْ حبرٍ من الوصفات التي وجدتُ إحداها في الوصفات المشهورة لدى جمهور الخطّاطين القدماء، فيما الأخرى من جملة وصفات ابن مقلة في كتابه. ابن مقلة، هذا الرجل الذي ما زلتُ ألاحقه بخيالاتي، وألاحقُ وصفاته لأجدَ مبتغاي. لمْ أنجحْ حتى تلك اللحظة، لكنَّ الحلم بداخلي عظيمٌ وجامح. صار عليَّ أنْ أجرِّب الخطّ به على الورق لاختباره. ليس لاختبار جودته أو كثافته هذه المرّة، وإنّما لأجل شيءٍ آخر هو هدفي.

هل سأنجح هذه المرّة؟ لا شيءَ أمامي مَدَّني بنسبة نجاح. على أنّي لم أودَّ أنْ يكون ذلك مثبّطًا لعزيمتي. أصلاً لمْ أكن أملك الوقتَ لمثل هذه الثرثرة. كنتُ قد قرّرتُ الخطَّ على الورقة الصفراء المصقولة، حين باغتني صوتُ منبّه هاتفي ليُعلمني أنَّها الساعة السادسة مساءً. بعد ساعتيْن، من المفترض أن تبدأ حفلة عيد ميلاد أمّي. قدّرتُ أنّ التوقّف عند هذه الساعة مناسبٌ لكي أتمكّن من الحضور باكرًا. أوقفتُ المنبّه بيدٍ، فيما شرعتُ في إغلاق علبة الحبر الجديد أوّلاً، قبل إغلاق العلبتيْن الأخريَيْن. طويتُ مخطوطة ابن مقلة بعد تأكّدي من وجود العلامة الحمراء في مكانها، وتركتُ الورقة

الصفراء على الطاولة حيث كانت. أحبُّ أنْ أجعلَ أوراق اللوحات هكذا لتنتظرني. كأنّها تحفّزني وتدعوني إليها، سواء أكانَ ذلك من بعيدٍ أو من قريب.

حاولتُ النهوض فشعرتُ بألمٍ في ساقيَّ. لا أتذكَّرُ كمْ مَرَّ عليَّ من الوقت وأنا جالسٌ إلى طاولتي. تمدّدَ الألم إلى فقرات ظهري، فكانَ عليَّ أنْ أتمدّد. شبكتُ أصابع يديَّ الواحدة إلى الأخرى وجعلتُ وجهيْهما أمامي، وضغطتُ في الاتّجاه العلوي ما وسعني ذلك. رفعتُ قدميَّ كذلك كأنّي أحاولُ الطيران. لمْ يسكن الألم. توقّفتُ وجعلتُ يديَّ على خاصرتي ومِلتُ يمينًا وشمالاً باطّراد. حين أدرتُ رقبتي يسارًا، تذكّرتُ أنّي لمْ أشترِ باقة ورد. بدا ذلك مخجلاً ومربكًا بالنسبة لي. توقّفتُ عن التمدّد. نظرتُ إلى يديَّ لأتأكّد من نظافتهما من الحبر. علقتْ بقعة منه في رأس إصبعي ـ السبّابة. هذا المكان الأكثر عُرضةَ لبقع الحبر. حين فركتُ يدي بالصابون، فكّرتُ في ما إذا ستحظى هديّتي بإعجاب أمّي أم لا! في كلِّ مرّة أوكلُ المهمّة لأختي الصغرى سارة التي تعرفُ تمامًا ذوق أمّي. هذه المرّة قرّرتُ أنْ أختارَ بنفسي الهديّة. لمْ أشأ حتى استشارة أيِّ أحدٍ في ذلك، كأنّي أريدُ اختبار ذوقي أو أنْ أحيط العمليّة كلّها بسرّيّةٍ تامّة. أدرتُ الحنفيّة وغسلتُ يديَّ مرّتيْن فيما كانتْ صورة الهديّة تومضُ.

لستُ أدري لِمَ أحسستُ بالغيرة من سارة حين أخبرتني عبر الهاتف أنّها سبقتني إلى شراء باقة من الورد. قلتُ لها بأنّي سأجلبُ واحدةً أجمل ممّا أَخَذَتْ. لمْ أدقّقْ في كلامي حتى نبّهتني إلى ذلك أختي التي ضحكتْ ضحكةً عاليةً مردّدةً عليَّ بأني بتُّ طفلاً. «تغار؟». سألتني بصوتٍ ممدود بلهجتنا التي تساعد على ذلك كثيرًا وتشعلُ استفزازًا سرّيًّا. صمتُّ لحظةً مفكِّرًا فيما إذا كنتُ حقًّا كذلك. راوغتها بالحديث عن أنّي لا أملكُ وقتًا أضيّعه معها في ذلك الوقت، لأنّ الوقت أزفَ. على أنّي كنتُ مشغولاً بالإجابة عن هذا السؤال في داخلي: هل غرتُ فعلاً؟ لا أتذكّرُ أنّي كنتُ أغارُ من أيٍّ واحدةٍ من أخواتي. أنا الشابُّ الوحيد بينهنَّ. هنّ من كُنَّ يغرنَ منّي. لطالما كنتُ أسمع عبارات الغيرة منهنَّ منذ صغري. أختي الكبيرة مثلاً، كلّما تعرّضتْ لموقف، ردّدت جملتها الشهيرة: «طبعًا فأنا لستُ أحمد». سارة تحاكيها بجملةٍ أخرى: «ليتني كنتُ أحمد». هل تغيّر الوضع؟

حاولتُ طرد السؤال والتركيز على انتقاء باقة وردٍ أجمل من تلك التي اشترتها سارة. ألزمتُ نفسي بتحدٍّ من دون أنْ أرى باقتها، جعلني أكثرَ حيرةً في انتقاء الباقة في محلّ «عليا فلاورز» القريب من منطقتنا في الرفاع. لاحظتْ الموظّفة الفلبينيّة حيرتي، فسألتني بإنجليزيّة متغنّجة المساعدة. أومأتُ بلا، هزّتْ رأسها احترامًا لقراري وانسحبتْ. أردتُ كسبَ

التحدّي من دون مساعدة أيِّ أحد. غرقتُ في باقات الورود الملوّنة. لمْ يسبق لي أنْ اشتريتُ باقة ورد ولستُ أعرفُ أيَّ الألوان هي المفضّلة لدى أمّي. حاولتُ استعادة الألوان الأكثر شيوعًا في ملابسها وأشيائها. إنّها تحبُّ الأزرق، قلتُ في نفسي بعدما اصطفّتْ أمامي صورٌ متنوّعة لأنواع من ملابسها، لا سيّما تلك التي ترتديها في المناسبات. أثاث غرفتها كذلك، ابتداءً من أغطية السرير وانتهاءً بالشمعدانات الصغيرة المولعة أمّي بها. على أنّي لمْ أجدْ أمامي أيَّ وردٍ أزرق.

أومأتُ للموظّفة أنْ تأتي من فورها كأنّي لمْ أعد أملكُ الوقت. قلتُ لها بحماسةٍ بما أريد. ابتسمتْ حين قالتْ لي بأنّها تملك باقةً خاصّةً من اليابان يتمّ الاحتفاظ بها في الداخل. قلتُ لها بأنّي أريدها مع إحساسٍ عالٍ بالانطلاق. لمعَ وجه أختي أمامي مغتاظةً وهي تقول: «ليتني أحمد!» بشفتيْها المزمومتيْن إلى الأسفل وعيناها تحدجاني بنظراتٍ حادّة. ابتسمتُ لخاطر أنّ أحمدَ سيبقى مصدر غيرتها دائمًا. حدّقتُ في كلِّ الباقات الملوّنة أمامي مرّةً أخرى. بالطبع اختارتْ أختي إحداها، لكنّي اخترتُ من غير المعروض، من الباقات الخاصّة، من الباقات التي لمْ ترها بالتأكيد. نظرتُ إلى ساعتي. لمْ يزلْ أمامي متّسعٌ من الوقت. فكّرتُ أنْ أدعو خالتي للحضور مرَّةً أخرى. كانتْ المرّة الأولى التي فكّرتُ فيها بذلك قبل يوميْن. طردتُ الفكرةَ حينها تمامًا. لكنّها

خطرتْ لي مجدّدًا قبل ساعةٍ تقريبًا من موعد الحفلة. حتى لو قرّرتُ دعوتها، فإنّي لا أملكُ وقتًا لذلك. أساسًا الفكرةُ غير جيّدة. لمْ أعلمْ بمَ فكّرتُ أو لمَ فكّرتُ بدعوتها على هذا النحو. ربّما ما كنتُ بحاجته هو مزيد من الهدوء، من ذاك الذي شكّلَ انعطافةً كبرى في مسيرة حياتي، قبل أكثر من ثلاثة شهور. لولا تلك الانعطافة، لما كنتُ أعلمُ ما سيكون من أمري في مثل هذه المناسبة. هكذا عليَّ مواصلة ما بدأتُ به ونجحتُ فيه حتى هذه اللحظات، وما لستُ مستعدًّا أبدًا للتفريط به تحت أيِّ ظرفٍ كان. لا شيءَ بإمكانه تعكير هذه الأجواء ما لمْ أقحمْ أشياءً مفسدة، أو تحدث أمورٌ غير متوقّعة. لنْ أوجّه الدعوة إلى خالتي هذه الليلة. على أنَّ ثمّة رغبة سرّيّة في داخلي لتذويب جسرٍ لا أعرفُ كيف أوصّفه.

بائعة الورد الفلبينيّة، بعينيها الضيّقتيْن، أخرجتني من كلّ تلك الأفكار وهي ترفع الباقة بحذائي وقد أضاف الرذاذ البرّاق على الورود الزرقاء فتنةً. شكرتها بعينيْن مجنّحتيْن ولمْ آخذ الدينار المتبقّي لي. قلتُ لها إنّه هديّةٌ منّي. «بقشيش»؟ أنا ضدّ هذا الأمر في الحقيقة. لكنّي فعلتُ ذلك بملء إرادتي وبمحض رغبتي.

في السيّارة، شعرتُ بشعورٍ غامض لستُ أعرفُ ما هو تحديدًا، وازدادُ الأمر صعوبةً حينما غرقتُ في تذكّر ما جرى

خلال الشهور الثلاثة الماضية، بعد تلك الليلة العاصفة. ما زلتُ أتذكّرُ وجه أمّي الغاضب الباكي في آن. انهيارها المفاجئ بعد عاصفةٍ من الغضب الذي لمْ أعرفْ سببه إلّا متأخّرًا جدًّا بتوقيت جرحٍ غائر. كلُّ ما بدا لغزًا، انحلّ في لحظةٍ انتباه طال أمدها. لستُ أدري لمَ لمْ أنتبه إلى ذلك كما هو. وما يجعلني أكثر حيرةً هو شعوري بشيءٍ غير قليلٍ من ذلك لكنّي كنتُ على الدوام أتجاهله. هل كنتُ فعلاً أتجاهله؟ لمَ التجاهلُ أصلاً؟!

في تلك الليلة، وبعد أن أغلقت على نفسي باب غرفتي، خرجت لأشربَ كأسًا من الماء. كانتْ أختي الكبرى في الصالة تتفرّجُ على فيلمٍ أجنبي. لمْ أشأ النظر إليها أو محادثتها. . وجّهتُ عينيَّ باتّجاه شاشة التلفزيون. قرأتُ جملة: «كلُّ الأشياء في لحظةٍ تتداعى كما نحن». هزّتني الجملة التي لمْ أكنْ بحاجةٍ إليها في تلك الليلة التي شعرتُ فيها حقًّا بالتداعي. «إلى أين؟». سألتني أختي بنبرة مستفزّة. لم أجبها. لمْ أفعلْ ذلك في المرّة الأولى ولا في المرّة الثانية. بدا صمتي أكثر فعاليّةً من أيّة إجابة. انتبهتُ إليها بعينٍ ضيّقة ومشيتُ باتّجاه المطبخ. سمعتها حين قالت متهكّمةً: «ألمْ تشبعك الخالة؟». تظاهرتُ بعدم سماعي لذلك بينما كنتُ أتناولُ كأس الماء. أضافتْ: «أمي لمْ تأكل ومعتكفة في غرفتها لا تريد رؤية أيّ أحد، وهو يتعشّى للمرّة الثانية!». صُدِمتُ. شعرتُ بتأنيبٍ في ضميري. تركتُ كأس الماء

المخطّط بحلقاتٍ بلاستيكيّةٍ سوداء على حافّة الطاولة وهممتُ بالانصراف. «طيلة عمره بدون إحساس». أوقفتني جملة أختي التي لمْ تكفَّ عن إيذائي بكلامها. تراجعتُ خطوتيْن محاولاً امتصاص تأثير الجملة. لمْ أدرِ إنْ كنتُ حقًّا كذلك بدون إحساس. لستُ كذلك طبعًا. هذه مبالغات أختي التي عهدتها، إلّا أنَّها في هذه المرّة هزّتني في العمق. عدتُ إلى الكأس، تناولته وغسلته بالماء والصابون. رفعته إلى الأعلى لأرى إنْ كان نظيفًا تمامًا أم لا. لا أغسلُ الكؤوس والصحون في العادة. هل أردتُ القول بأنّي أمتلكُ إحساسًا؟

أمسكتُ نفسي عن الردّ على أختي حينما عبرتُ أمامها. لا لشيءٍ سوى لانصباب تفكيري على سبب كلّ ما جرى. هي صمتتْ أيضًا. ربّما انشغلتْ بما يجري أمامها في الفيلم. فكّرتُ فيما إذا كان البطل قد تداعى أيضًا بعد تداعي الأشياء من حوله. لمْ أكنْ راغبًا في متابعة الفيلم لكنّي وددتُ لو عرفتُ ما جرى له.

حين بلغتُ غرفتي، وجدتني أمام الأفكار المشتّتة ذاتها. كأنَّ هذه الغرفة المظلمة كانت في ذلك الوقت أكثر عتمةً من أيِّ وقتٍ مضى، وأكثر قدرةً على بعثرتي بأسئلةٍ لم أعرف إجاباتها حينها. فكّرتُ طويلاً في ما إذا كان منطقيًّا كلّ ذلك الغضب. أزحتُ فكرة «المنطقيّة» هذه تمامًا. هل ثمّة وقتٌ

الآن لمَنْطَقة الأمر؟ فكّرتُ أنَّه من المستحيل أنَّ ما جرى اليوم سببه اليوم. قلتُ باستحالة ذلك مع عدم إيماني بفكرة المستحيل من أساسها. لكنّي وجدتُ أنَّ كل السياقات تقودني إلى هذا الاستنتاج. لمْ يكن معقولاً أنْ أستمرَّ بالسذاجة ذاتها. بالطبع لمْ يتعلّق الأمرُ «بباستا» خالتي. كان متعلّقًا بخالتي. هذا ما وجدتني أمامه. لكن لماذا؟ لمْ أجدْ جوابًا رغم كلِّ محاولاتي للتوصّل إلى إجابة مقنعة. لأعترفْ بأنَّ قدرتي على التحليل محدودة في كثير من الأحيان، في هذا الواقع. أمّا هناك، في عالمي الأجمل، في عالم الخطّ فإنّي مهووسٌ به ولا أرتضي التفسيرات الجاهزة حتى تقنعني.

كنتُ أحدِّقُ في العتمة. عينايَ إلى السقف الرمادي. هربتُ من فكرةِ غيرة أمّي من طبخ خالتي إلى المرآة المربّعة أمامي. فالتمعتْ زجاجة العطر الفضّي، هديّة خالتي لي في عيد ميلادي العام الماضي. هديّة أمّي كانت ساعةً دائريّةً بإطار فضّيٍّ وجلدٍ أسود. تذكّرتُ وجهها عندما قبّلتني. كانتْ قد عادتْ للتوِّ من المستشفى. قالتْ لي إنّها هديّة متواضعة ترجو أنْ تكون جميلة، قبل أنْ تسألني عمّا إذا كانت هديّتها هي الأولى. كنتُ مرتبكًا أمام لحظاتها القليلة التي تكون فيها على هذا النحو من اللطف الحميمي. أجبتها بأنّها سبقتْ أخواتي وأصدقائي، فانفرجتْ أساريرها قبل أنْ تنكمش لدى قولي بأنَّها وحدها خالتي التي سبقتها. أشاحتْ بعينيْها عنّي، وقالت

بصورةٍ مستعجلةٍ بأنّها تودُّ تغيير ملابسها.

لاحظتُ ذلك يومها لكنّي لمْ أتوقّفْ عنده. لا بدَّ أنّها أحسّتْ بالضيق حينها على نحوٍ مباغت. تذكّرتُ أنّها كانتْ أقلَّ حرارةً ممّا كانتْ عليه حين رجعت لاحقًا. سمعتها تقول لسارة إنَّها مشغولة البال بشيءٍ يتعلّق بالمستشفى، إلّا أنّها لمْ تفصحْ عن ذلك. صدّقتُ ذلك رغم أنّي لمْ أكنْ منتبهًا جيّدًا إليها إنْ كانتْ حقًّا كذلك أم لا. كبّرتُ عدسة ذاكرتي لأرى الصورة بشكل أوضح. كيف لمْ أنتبه لذلك؟ استدعتْ تلك الصورة صورةً أخرى. تذكّرتُ عودتي ليلة العيد إلى البيت عندما كنتُ طفلاً. أريتُ أمّي ملابس العيد التي اختارتها لي خالتي. كان القميصُ أصفرَ مخطّطًا بخطوطٍ زرقاء وخضراء وحمراء عريضة، فيما كان البنطال أزرق. ضغطتُ على الأرض بقدمي لأريها قدرة حذائي على الإضاءة. قلتُ لها أنْ تنظرَ إلى الحذاء الذي جلبته لي خالتي. تبرّمَ وجهها، وطوتْ القميص والبنطال وتركتهما جانبًا. سألتها عن رأيها فأجابتني من دون أنْ تنظرَ إلى عينيَّ: «جميل.. تعال!». جذبتني إليها وأعادتْ فردَ الملابس لتقوم بقياس الملابس عليَّ. كانتْ ملامحها جادّةً حينها. ولمّا انتهتْ، أعادتْ ثني الملابس ووضعتها في الكيس بسرعة.

تذكّرتُ أنَّ خالتي أجابتني يوم العيد بأنَّ الحذاء كان من

اختيار أمّي أوّلاً، على أنّي لمْ أبالِ بذلك يومها. نهضتُ من فراشي، وتوجّهتُ لأشعل الضوء. حين ضغطتُ على زرِّ المصباح شعرتُ أنَّ شيئًا ما بداخلي أضاء. لكنّه أضاء على نحوٍ موجع. تذكّرتُ صوت أمّي حين أخبرها عبر الهاتف بأنّي متوجِّهٌ للعشاء عند خالتي، فيغدو صوتها أكثر عمليّةً، بعد وقفةٍ بسيطة انتبهتُ إلى تكرِّرها غالبًا عند الحديث عن خالتي، كأنّها تبتلعُ ريقها أو تحاولُ استعادة توازنها ولطالما أرجعتُ الأمر في المرّات القليلة التي فكّرتُ فيها بالأمر إلى مزاجها. من عادتها انعكاس جوّ العمل عليها، وغالبًا ما يكون مزاجها متوتّرًا أو حادًّا. اعتدتُ على مزاجها هذا، ولهذا لمْ أكنْ أستشعرُ المزاج الآخر لقلّة لحظاته. «هل تغار أمّي من خالتي على الرّغم من أنّها أمّي، بَيْدَ أنّي لمْ أعرفْ على وجه الدقّة الإجابة لأنّها دائمًا ما كانتْ تظهرُ أمامنا بصورة القائد. تذكّرتُ أنّها كانتْ دائمًا ما تذكّرنا في أوقات الدراسة بأنّها خرّيجة الطبّ من العراق، وأنّها من الدفعة الثانية التي ذهبتْ إلى هناك. كانتْ تقولُ لأخواتي بأنّها تريدهنَّ مثلها، وليس مثل أختها التي لمْ تواصلْ دراستها واكتفتْ بالثانويّة العامّة. استبعدت موضوع الغيرة معتمدًا على اعتداد أمّي بنفسها، لكنّي وجدتُ أرضيّة ذلك رخوة. جلستُ على الكرسي الوحيد في غرفتي، واضعًا يديَّ خلف رأسي ومسندًا ظهري عليه بلونه الماروني المقلّم بالأسود. مرّتْ الصور من أمامي مجدّدًا،

كأنّها تجيبني «ولمَ لا؟». بل إنّها أجابتني فعلاً. لكنّي رفضت التوقّف عند ذلك الاستنتاج وحده.

قلتُ بأنّي أنا وحدي السبب. كأنَّ شيئًا ما فيَّ انكسر. عبثًا حاولتُ ترميمه بأنّي لستُ وحدي. أخواتي معي. نعم، هنَّ معي أيضًا. على أنَّ هذا الرأي لمْ يصمدْ كثيرًا أمام استنتاجي بأنْ لا علاقة مميّزة بينهنَّ وبين خالتي. لا تحتفظ ذاكرتي بصورٍ تجمعني مع أخواتي بخالتي. كنَّ يذهبنَ لشيماء وحدها في المناسبات، بعد سلامٍ عاديٍّ على خالتي التي لا تحادثهنَّ كثيرًا حين يكنَّ مع شيماء. «خذنَ راحتكنَّ». دائمًا ما كرّرتْ على مسامعهنَّ ذلك. غالبًا ما كنتُ أنا وشيماء في الصورة، بعد فترة من تملّص شيماء من أحاديثها مع أختيَّ. حينها فقط، تأتي المساحة لظهور خالتي التي لم يكن يبدو عليها أنّها تحمل وساوس أو هواجسَ بشأن قضائي كلّ ذلك الوقت مع ابنتها فقط. لمْ تبدُ يومًا أنّها فعلتْ ذلك كلّه لأجل المراقبة. كانت سارة تتندّرُ على خالتي بتسميتها «خالة أحمد»، مضيفة بأنّه لا يكفيني دلال البيت لأحظى بدلال الخالة. كما لمْ توفّر أختي الكبرى علياء هذه الجمل وأشباهها، بحيث تسألُ عمّا هو مثيرٌ للإعجاب بي إلى هذه الدرجة!

فهمتُ إذًا سبب برود العلاقة بين أختيَّ وبين خالتي. فهمتُ على الأرجح سبب أختيَّ، لكنّي لمْ أهتدِ إلى سببٍ

واضح متعلّق بخالتي. هل لأنّي سرقتُ الاهتمام بهنَّ إليَّ؟ «لا تتأخّر!». التمعتْ الجملة في غابة الأفكار. كبرتْ. تمدّدتْ. «لا تتأخّر!». كلّما أخبرتُ أمّي بأنّي سأذهبُ إلى بيت خالتي، تكرِّرُ عليَّ هذه الجملة بصوتٍ متردّد. لمْ أنتبه في البداية إلى أيِّ شيءٍ غريبٍ فيها، حتى استدركتُ بعد مدّةٍ أنَّ أمّي لا تسمعني هذا الأمر حين أخبرها بذهابي إلى أيِّ مكانٍ آخر. عندها فقط انتبهتُ. لماذا لمْ أنتبه من قبل؟ كنتُ أرجعُ الأمر دائمًا إلى تحسّسها من الموضوع بكلّيّته، ولهذا أغفلتُ كلَّ التفاصيل التي لمْ أجدها مهمّةً البتّة. «بدون إحساس»! صعقتني الجملة مجدّدًا بصوت علياء المستفزّ. بنبرتها الحادّة التي حين تنطلقُ لا تتوقّف. «بدون إحساس؟». كانتْ الأحاسيسُ تصعدُ مستنكرةً ثم ما تلبثُ أنْ تعودَ تجرُّ أذيال الألم. حاولتُ الهروب من الإقرار بالإجابة كعادتي في مثل هذه المواقف. أهربُ من كلِّ شيءٍ سوى الخطّ. لا أستسلمُ في عالم الحروف وأبقى فيه محاربًا بكلِّ ما تيسَّرَ لي من أدوات. أمّا في سواه فلا شيءَ سوى الهروب أو تجرّع الهزيمة. أجلتُ عينيَّ في اللوحة المستطيلة العريضة التي أحبّها ولا أريدُ بيعها بأيِّ حالٍ من الأحوال. تأمَّلتُ الخطَّ الديواني الجليَّ فيها بلون الحبر الماروني. زادتني النقاط السوداء الصغيرة التي تنتشرُ في كامل الشكل الزورقي حيرةً عبر تكرارها الدائم. أحسستُ أنّي إحداها: نقطةً صغيرةً في مساحة تكوين. نقطةً صغيرةً ثابتةً في

مكانٍ ما دون أيِّ شيء.

تدفّق وجه أمّي أمامي بغتةً. تلعثمتُ. حاولتُ قولَ شيءٍ ما أو ربّما أشياءً كثيرةً متعدّدة. لمْ أجدْ أيَّة كلمة. كان وجهها أمامي وادعًا. لمْ أتذكّر متى كانت آخر مرّةٍ رأيتُ وجهها بتلك الوداعة. لمْ أتذكّر أيضًا متى كانتْ آخر مرّةٍ تلعثمتُ فيها أمامها وهي هادئة. ما يحدث دائمًا أنْ أتلعثمَ أمام حدّتها وغضبها. ربّما كان ذلك قبل سنين بعيدة حينما اشترتْ لي لعبة السيّارة التي يمكن التحكّم بها عن بُعد. كنتُ يومها في الثانية عشرة من عمري. تذكّرتُ أنّها نادتني بينما كنتُ ألعبُ كرة القدم مع الأولاد بالقرب من منزلنا. ركلتُ الكرةَ بقوّةٍ كأنّي سأسدِّدُها بينما اعتزمتُ تمريرها لزميلي الذي صرخَ في وجهي جرّاء هذه التمريرة الحمقاء. سمعتُ صراخه بينما كنتُ أركضُ ممتعضًا باتّجاه أمّي. حين وصلتُ، نظرتْ إلى ساقيَّ المتّسختيْن بالتراب. أحسستُ بأنّها ستثور. رفعتُ يديَّ وأرخيتهما للأسفل معتذرًا. لمْ تتكلّم. أخذتْ نفسًا قبل أنْ تناولني كيسًا أصفرَ. جحظتْ عينايَ حين مددتُ يديَّ واستخرجتُ منه السيّارة. لم أزلْ أتذكّر تلك السيّارة بعجلاتها البلاستيكيّة القويّة ولونها المتدرّج من الأصفر إلى الأخضر. كانت من فئة سيّارات السباق بسائق واحد. تذكّرتُ أنّي صمتُّ دهشةً. ليس لأنّي لمْ أتوقّع هذه الهديّة من أمّي وحسب، وإنّما أيضًا لأنّي لمْ أسرَّ لأحدٍ برغبتي في هذا النوع من الألعاب سوى لشيماء

وحدها. ربّما توقّعتُ الهديّة من خالتي تبعًا لذلك وليس من أمّي. ربّما قلتُ لها شكرًا. ربّما قبّلتها بفرحة. لستُ أدري على وجه الدقّة. ما أتذكّره هو تلعثمي أمام وجهها الوديع حينها.

بَيْدَ أنَّ وجهها أمامي في تلك اللحظات فجَّرَ بداخلي رغبةً كبيرةً في الحديث، في قول أشياءٍ كثيرةٍ لمْ أقلها ولمْ أحسَّ بها سوى في تلك اللحظات فقط. وددتُ لو أصرخُ بها لتخرجَ بكامل طزاجتها. لمْ أكنْ أعلمُ إنْ كان يجدرُ بي الخروج من غرفتي باتّجاه غرفتها لأقول لها ذلك أم لا. عدتُ إلى فراشي وتمدّدتُ. كان وجهها قد اختفى داخل غرفتها التي ظهرتْ أمامي فجأةً. وجدتني أمام الباب الخشبي الذي يتوسّطه مربّعٌ من زخارفَ نباتيّة. حاولتُ الإمساك بمقبض الباب. التمع المقبض لحظةً قبل أنْ أحسَّ ببرودته. نسيتُ طرْقَ الباب. أنّبْتُ نفسي لأنّه لمْ يسبقْ لي فعلُ ذلك. أرخيتُ قبضتي. عادَ المقبض للّمعان. اقتربتْ أصابعي المرتجفة قليلاً من زاوية إحدى الزخارف النباتيّة. كانتْ عند تويْج الوردة تحديدًا. كدتُ أنْ أضعها كلّها لولا إحجامي عن ذلك، في اللحظة الأخيرة. أحكمتُ قبضتي وضغطتُ عليها قبل أنْ أضربها في الهواء. حاولتُ بذلك التخلّص من شحنة التوتّر التي شلّتْ قبضتي. قرّبتُها ثانيةً. تخيّلتُ للحظةٍ أنّها تبكي بالداخل. اقتربتْ أصابعي أكثر فأكثر. لكنّها هذه المرّة لمْ تكن بالقرب

من الوردة. كانتْ في المساحة الخالية من مربّع الزخرفة. لمْ يصدرْ أيُّ صوتٍ حينها. أحكمتُ الضغط على قبضتي وعدتُ للطرْق. نجحتُ هذه المرّة لكنّي لمْ أسمع صوت أمّي بالداخل يسألُ عمَّنْ يكون الطارق أو يأمرُ بالدخول. طرقتُ بقوّةٍ مرَّةً ثالثةً فرابعةً فخامسةً من دون جدوى. أفرغتُ كلَّ غضبي في مقبض الباب الذي أنزلته بعصبيّة. فتحتُ البابَ على مصراعيْه. لمْ أجدها هناك. «أمّي! أمّي!». عبثًا صرختُ. كرّرتُ النداء بينما تجوّلتُ في أنحاء غرفتها. «أمّي! أمّي!». اختفى الباب واختفى أثاث الغرفة. لا شيءَ هناك سوى عتمةٍ مباغتة. لا شيءَ سوايَ أنا وحيرتي ووجه أمّي الضائع. فزعتُ. كان قلبي يتشظّى خوفًا. «أين أمّي؟». سألتُ بصوتٍ لمْ أسمعه، وربّما لمْ يكن موجودًا. محوتُ تلك الصورة سريعًا. صحيحٌ أنّها لمْ تُمْح بداخلي إلّا أنّي لمْ أعدْ أراها. وحدُه السؤال ما زال صامدًا منتصبًا بقامته الطويلة: «أين أمّي؟». لمْ أهتدِ إلى شيءٍ حاسمٍ وسط كلّ تلك الأفكار المضطربة. قلتُ في نفسي إنّني بحاجةٍ إلى الهدوء. «الهدوء؟!». سخرتُ في سرّي. لمْ أطقْ البقاء على تلك الحال مدّةً أطول. خطرتْ ببالي فكرةٌ حينها، ليستْ فكرةً عظيمةً بالطبع، لكنّها بدتْ لي حلًّا جيّدًا فلمْ أتوانَ في تنفيذها.

توجّهتُ إلى طاولتي السوداء المربّعة حيث أوراقي وأقلامي. هنا لا أضعُ أيّة أحبار أو قصب الخطّ لأنّي لو فعلتُ

ذلك، لربّما لن أنام. أضعُ فقط مجموعةً بسيطةً من أقلام الخطّ الماجيك ورزمةً من الأوراق البيضاء غير المصقولة التي غالبًا ما أخطّ تخطيطاتي المبدئيّة عليها. تناولتُ قلمي الأسود وفكّرتُ في ما أخطّ. كنتُ بحاجةٍ إلى خطّ أيِّ شيءٍ لأتسلّى به وأهرب. قمتُ بخطِّ مجموعةٍ من الحروف المتوتّرة. لمْ أحاول التركيز على ذلك جيّدًا لأنّي لستُ بصدد العمل على لوحة، لكنَّ عينيَّ لمْ تخطئا رؤية اهتزاز الحروف ورداءة بعضها. مددتُ يدي محاولاً خطَّ حرفٍ جديدٍ. قلتُ في نفسي إنّي أريدُ التخلّص من كلّ توتّري من خلال التركيز على حرفٍ معيّن. في العادة لا أحارُ كثيرًا حين اختيار أيّ حروفٍ عند التمارين. لكنّي في تلك المرّة، بدوتُ حائرًا وكأنّي سأجلبُ الحروف من قعر بئر عميق. وضعتُ يدي على الورقة. استدار القلم في اتّجاهٍ شبه دائري، فنزلتُ مائلاً. عرفتُ في ما كنتُ أفكّر. مددتُ يدي باتّجاهٍ أفقي انطلاقًا من الخطّ المائل. رفعتُ يدي قبل أنْ أضعها ثانيةً فوق الشكل شبه الدائري خاطًّا نقطةً معيّنة. اكتملَ الحرف ولمْ تكتملْ لديَّ صورة ما فكّرتُ به. أغلقتُ رأس قلمي بغطائه فيما أحسستُ بنوعٍ من الهدوء. بعد ثوانٍ قليلةٍ، عدتُ للإمساك بالقلم. نزعتُ غطاءه وبدأتُ في خطّ كلمةٍ لمْ أخطّها منذ زمنٍ بعيد. وربّما حين قمتُ بذلك لمْ أشعرْ بما شعرتُ به حينها. استدارتْ أصابعي في اتّجاهٍ شبهٍ دائري، قبل أنْ تميل يسارًا قليلاً ثم تصعد على مهلٍ إلى

الأعلى. رفعتُ قلمي ثانيةً قبل أنْ أضعها على الجهة اليمنى منه، ثم بدأتُ بالصعود في اتّجاهٍ شبه بيضاوي قبل أنْ أهبط بميلانٍ معاكسٍ باتّجاه الأسفل. توقّفتُ هنيهةً قبل أنْ أمدّ خطًّا مائلاً وأميلَ من بعده. صعدتُ قليلاً ثم ما لبثتُ بالهبوط. رفعتُ يدي ووضعتُ نقطةً أعلى الشكل شبه الدائري، ونقطتيْن أعلى الشكل الهابط في الشكل الأخير. هكذا أتممتُ خطَّ الكلمة. نظرتُ إلى حرف الفاء بجوارها قبل أنْ أعيدَ النظر إلى الكلمة أو الاسم بالأحرى: «فاطمة».

الخطُّ ضابط إيقاع لأحاسيسي. إنّه يجعلني أكثر قدرةً على التحكّم بي. حين أهربُ إليه، يجعلني أسافرُ في عوالم حروفه لأرى من خلالها عوالمي التي تركتها في أرض الواقع معلّقةً. الهروبُ إلى الخطّ عودةٌ إليَّ حين أستردُّ نفسي وأنفاسي وأتهيَّأ لمجريات واقعٍ غالبًا ما يكونُ غريبًا عنّي أو لمْ أفهمه تمامًا. الخطّ عدستي السرِّيّة.

حين انتهيتُ من خطّ اسم أمّي، عرفتُ من خلال إيقاع نبضي ما أريد. الحنينُ السرّي عمّدني بأفكارٍ أخرى بدتْ أكثر وضوحًا كلّما أعدتُ التفكير فيها. «فاطمة». قرأتُ الاسم مجدّدًا. قلتُ لنفسي بينما راح وجهها يرتسمُ في مخيّلتي إنّه ليس مهمًّا ما كان منّي بقدر أهمِّيّة ما سيأتي لأخفِّفَ على نفسي عواصف تأنيب الضمير. رُحتُ أتخيَّلُ ما سأفعله لأجلها في

الأيّام المقبلة: «سأكون معها كلّ الوقت بعد عودتي من عملي في المدرسة. لنْ أسمح لأيِّ أحدٍ أنْ يسرقني منها حتى لو كانتْ خالتي ذاتها. سأعوِّضها. سأعوِّضها. سأعوِّضها». قلتُ في نفسي محاولاً التخلّص من عبء تلك الحالة الغريبة. ثمّة حنينٌ موجعٌ اجتاحني. كمْ يبدو الحنينُ أكثر قسوةً حين يكون لأشياء متخيّلة أكثر من كونها قد حدثتْ تمامًا. التخيّلُ أكثرُ فعاليةً من الواقع. وربّما هذا ما حدث لي حينها، عندما أحسستُ بحنينٍ لكلِّ أوقاتي الماضية التي لمْ أكنْ فيها بجوار أمّي على النحو المرام. لم تحتفظ ذاكرتي بصورٍ من الذكريات أشعرتني بالحنين إليها. لربّما شعرتُ بتأنيب الضمير أكثر حينما تذكّرتُ يوم أهدتني أمّي السيّارة ذات التحكّم عن بعد، أو بعدما علمتُ بأنَّ الحذاء كان من اختيارها. تكفَّل الحنين فيما عدا ذلك بتخيّل أشياء أخرى أفضِّلُ عدم سردها لأنّها ستجعلني أسافرُ معها، ولا أعلمُ إنْ كنتُ سأعودُ بعدها.

كنتُ قد وصلتُ إلى البيت عند الساعة الثامنة مساءً. تأخّرتُ قليلاً بسبب أعمال الصيانة في بداية الشارع الفرعي المؤدّي إلى بيتنا، حيث رأيتُ ذلك الرجل الثقيل يدقُّ جرس بيت أحد الجيران. لا شكّ أنّه ما زال مواظبًا على تقديم عروضه الحقيرة. أمّا في البيت، فالكلُّ على أتمِّ الاستعداد بانتظار عودة أمّي التي لمْ تعدْ بعدُ من المستشفى. استقبلتني علياء بابتسامة واسعة وعيناها على الورود الزرقاء اللامعة. سألتها عن سارة مقاطعًا سؤالها عن المكان الذي أخذتُ منه الباقة. توجّهتُ من فوري إلى المطبخ ويداي تخبِّئان الباقة خلف ظهري. كانتْ سارة مشغولةً بسكب عصير البرتقال في الكؤوس الشفّافة في الجهة المقابلة لي. اقتربتُ منها خطواتٍ هادئةً قبل أنْ أباغتها من خلفها بباقة الورد. «أزرق؟!». قالتْ

مندهشة بينما تفحّصتْ عيناها اللون محاولةً التأكّد من حقيقة زرقته. «طبيعي؟». سألتني. أجبتها رافضًا الإجابة عن بقيّة أسئلتها لأنّي اعتبرتُ ذلك من أسراري. سألتها عن الرابح في التحدّي، فضحكتْ ساخرةً من تذكّري لهذا التحدّي السخيف على حدِّ تعبيرها، قبل أنْ تضيف بأنّها طبعًا الرابحة. ضحكتُ هازئًا وقلتُ لها إنّها قالتْ ذلك فقط لأنّي هزمتها كما كنتُ أفعلُ دائمًا، فضحكتْ باستهزاء.

تركتها تواصل سكبَ العصير بعد أنْ أخذتُ كأسًا منه، وتوجّهتُ لغرفتي لأجهِّزَ هديّتي مارًّا بأختي علياء التي كانتْ تطعِمُ ابنها الجاسوس الصغير قطعةً من الحلوى. أغلقتُ الباب جيّدًا حين بلغتُ غرفتي، وتناولتُ الكرسي وصعدتُ عليه بعد أنْ نزعتُ حذائي الجلدي الأسود. سحبتُ بهدوء اللوحة من أعلى خزانة ملابسي حيث أخبّئ لوحاتي الهدايا. فهنا لنْ يراها أحد قبل أنْ أخرجها. أحكمتُ الإمساك باللوحة بيديَّ وأنزلتها بهدوء. وضعتها على سريري، ورحتُ أنظفُ الكرسي من وسخٍ محتمل. ارتديتُ حذائي بينما سمعتُ صوت الطرق على البابِ. كان ابن أختي الذي أخبرني بأنَّ أمّي ستتأخّرُ قليلاً، وأنَّ أمّه علياء تودُّ منّي البقاء قليلاً بالداخل لأنَّ جارتنا أم يحيى قد أتتْ في زيارة مفاجئة. أومأتُ موافقًا، بينما كانتْ عيناه تستكشفان ما استجدَّ ليعرفَ ما كنتُ أفعل. «عيسى!»، زجرته ليكفَّ عن عادته السيّئة تلك، وعندما زمَّ شفتيْه وهَمَّ

بالمغادرة، أوقفته لأعطيه دينارًا مقابل أنْ لا يُخبر أمّه بهديّتي التي ربّما لم يرها على السرير. هزَّ رأسه موافقًا بابتسامةٍ ماكرةٍ يتقنها في مثل تلك الأوقات، مصوِّبًا نظراته إلى المستطيل الزجاجي المؤطّر بإطار خشبي مزخرف. لمْ أشأ إزعاجه في ليلة عيد ميلاد جدّته. إنّه حفيدها الوحيد مهما يكنْ. بغضّ الطرف عن أنّه أصبح أقلَّ جاسوسيّةً، إلّا أنّه يبقى مصدر إزعاج لا سيّما مع عينيْه الماكرتيْن المتلصّصتيْن دومًا. لكنّي تأثّرتُ به قليلاً، فحين خرجَ توقّفتُ هنيهةً محاولاً استراق السمع للتأكّد من وجود أمّ يحيى حقًّا. ربّما كان فضولاً أكثر من كونه محاولة تأكّد. سمعتُ كركرتها وكان ذلك كافيًا. تذكّرتُ هذه الضحكة التي لا تنتهي بسهولة عندما ضحكتْ إثر انسكاب علبة حبر عليَّ. ولسوء حظّي رأتني حين نزلتُ من السيّارة، فاقتربتْ منّي ضاحكةً ببلاهةٍ لا حدَّ لها قبل أنْ تسألني عمّا حدث.

أحكمتُ إغلاق الباب وتوجّهتُ للوحة التي جلّدتُها بجلادة زرقاء. وضعتُ يدي عليها متحسِّسًا دفئها، وغارقًا في تذكّر ما جرى. قبل ثلاثة أشهر لمْ أكنْ أتخيَّلُ أنّي سأكونُ بمثل هذا الإحساس. بدتْ غرفتي أكثر رحابةً من المعتاد رغم أنّ كلّ الأشياء هي ذاتها في المكان. هكذا من دون سببٍ واضح. خلعتُ سترتي الكحليّة ووضعتها على الكرسي القريب حيث صافحتْ عينيَّ صورة أمّي بملامحها الوادعة وغمّازتيْها

الخجلتيْن. في عينيْها دمعةٌ لم تنزل بعد، وعلى شفتيْها بسمةٌ مرتبكة. تأمّلتُ الصورة التي التقطتها بعد أحلى لحظةٍ حدثتْ. ما زلتُ أتذكّرُ تلك الليلة العاصفة حين انتظرتها في غرفتها. كنتُ بحاجةٍ إلى مواجهتها بعيدًا عن أعين أختيَّ، فتسلّلتُ إلى غرفتها وحاولتُ ترتيب كلامي معها. كأنَّ أبواب الجحيم قد فتحتْ في قلبي حين فتحتْ الباب. تبعثر كلُّ الكلام الذي رتّبته وظننتُ أنّه مغزولٌ جيّدًا. نظرتْ إليَّ بعيونٍ واسعةٍ ونظراتٍ مستفهمة. طأطأتُ رأسي هربًا. «ماذا تريد؟». سألتني بنبرةٍ جافّة. «ماذا تريد؟». عادتْ لتسأل مادَّةً حرف الياء. «أتسمعني؟ ماذا تريد؟». سألتْ بحدّةٍ أكثر وسط صمتي. ضاعتْ منّي الجملة الافتتاحيّة التي أردتُ البدء بها، كما فقدتُ جرأتي على النظر إلى عينيْها. اقتربتْ منّي خطوات. تركتْ حقيبتها البنّيّة على الكرسي، وخلعتْ حجابها البحري في إشارةٍ منها إلى عدم اكتراثها بي. غالبًا ما تفعلُ ذلك لطرد الشخص غير المحبّذ تواجده بكلّ هدوء. أحسستُ بأنّي أكادُ أضيّع الفرصة. فكّرتُ بأنّي لمْ أنمْ منذ أنْ أغلقتْ على نفسها الباب في تلك الليلة، ولم أودَّ أيضًا عدم النوم ليلتها. وقفتْ أمامي لتشير إليَّ بأنّها تودُّ تغيير ملابسها. كانتْ تلك اللحظة حاسمةً، ولم أشأ أنْ أخسرها. رفعتُ عينيَّ باتّجاهها لثوانٍ، قبل أنْ أعيدهما إلى الأرض. رأيتُ جوربها الأسود فتنّورتها الخضراء المزركشة بورود زرقاء وصفراء وحمراء، فقميصها

الأبيض فشعرها الأسود الطويل الذي تعتني به جيّدًا. تذكّرتُ يوم أنْ سرقتُ منها زيت الصبّار من جملة الزيوت التي كانتْ في حمّامها، فابتسمتُ قبل أنْ تذوي تلك الابتسامة حين صعدتُ بعينيَّ باتّجاه فمها فعينيْها. «ماذا تريد؟». قالتها متبرّمةً بنبرةٍ ضجرة. طأطأتُ رأسي مجدّدًا قبل أنْ أنقضَّ عليها فاتحًا ذراعيَّ معانقًا إيّاها بقوّة. لمْ تأتِ بردّة فعلٍ مباشرة سوى تلك التي تحدثُ بعد المباغتة. «أنا آسف». قلتُ لها متوتّرًا، فلمْ تجبني. كرّرتُ بحرارةٍ أكثر من دون جدوى. وحدها جملة «سأعوِّضُكِ» التي قلتها بكلّ ما فيَّ من حنين جعلتها تتحرّك. «سأعوِّضُكِ»، كرّرتها على وقع غبشٍ بسيطٍ في عينيَّ. شدَّتني إليها لحظةً قبل أنْ ترخي جسدها وتغرق في نشيج مباغت. كأنَّ أجنحة الملائكة احتضنتني حينها، أو ربّما كانت الدنيا كلّها في هيئة ذراعيْن. لمْ نكنْ حينها بحاجةٍ إلى أيِّ كلامٍ آخر. تكفّلتْ نظراتنا بكلّ ذلك.

أبعدتُ جسدي عنها قليلاً ورفعتُ يدي القلقة محاولاً مسح دموعها. نظرتْ إليَّ بعينيْن متوهجّتيْن رغم ذلك. «أتذكرين يوم أنْ سرقتُ منكِ زيت الصبَّار؟». سألتها، كاتمًا ضحكةً خفيَّةً حينما هممتُ بتقبيل رأسها وغاصتْ يدي في شعرها. أرجعتْ رأسها محاولةً التذكّر. لمْ يسعفها التحديق في عينيَّ في التذكّر. هزّتْ رأسها نافيةً. انفلتتْ الضحكة، ثم قلتُ لها بأنّي سرقتُ منها زيت الصبّار حينما كنتُ في الثامنة

من عمري بعدما سمعتها تقولُ لجارتنا أمّ يحيى بأنّها اشترتْ زيتًا جديدًا بمفعولٍ أقوى من سابقه، وأنَّها لطالما انتظرتْ وصوله إلى الصيدليّات. تسلّلتُ يومها إلى غرفتها وتناولته على عجل ثم سكبتُ منه قليلاً في كأسي البلاستيكي. كدتُ أنجح في عدم ملاحظتها ذلك، لولا نسياني للقليل منه في حمّامي. ما زلتُ أتذكّرُ أنّها جُنّتْ من أصل الفكرة يومها، فضلاً عن سرقتي القليل من كنزها الثمين. كنتُ أريدُ أنْ يكون شعري طويلاً مثل أختي سارة التي تصغرني بعامين. ضحكتْ، بينما كانتْ تهزُّ رأسها مرّاتٍ في إشارةٍ إلى تذكّرها ذلك. عدتُ إلى التأسّف منها بعد توقّفنا عن الضحك. لاحظتُ أنّها ابتلعتْ ريقها لحظةً، قبل أنْ تنظرَ إلى الأرض ثم ترفع عينيْها باتّجاهي. أومأتْ لي موافقة بينما وضعتْ كفّها على وجهي. «انظر». قالتْ لي بينما كانتْ تشير باتّجاه اليسار. حدّقتُ باتّجاه يدها لأرى صورتي عندما كنتُ صغيرًا. كان حجم الصورة بحجم راحة يدي حاليًّا، بإطارٍ أحمر. أمّا في الصورة، فقد كنتُ أكثر سمنةً من كلّ صوري التي رأيتها من قبل. لمْ يسبق لي رؤية هذه الصورة من قبل، كما لمْ أتذكّر متى ارتديتُ تلك الملابس الزاهية، فالقميص أبيض مخطّط بخطوط بنفسجيّة وزرقاء، فيما كان البنطال من الجينز الكحلي. خجلتُ من قول ذلك، ولمْ تسألني إنْ كنتُ أتذكّرُ أم لا.

«أحبُّ هذه الصورة جدًّا وأكثر من كلّ صورك لسببٍ وحيد وبسيط. لا أعرف إنْ كنتَ ستعرفه أم لا. لا يهمّ. هذه الصورة التقطتها لك في عيد الأضحى الذي شعرتُ يومها بأنّي أمتلكك فيها حقًّا. كانَ أبوك ـ رحمه الله ـ في رحلة عملٍ في التشيك، فيما كانتْ خالتك في الحجّ. في تلك المناسبة، تكفّلتُ وحدي بكلّ ملابس العيد، كما كنتَ فيها معي طيلة اليوم في كلّ زياراتي لأنّي تركتُ أختيْكَ رفقة شيماء عند أمّي رحمها الله».

تولّتْ أمّي الإجابة من تلقاء نفسها، بينما رحتُ أحاولُ تذكّر ذلك اليوم. أمسكتُ بيد أمّي وقبّلتها محاولاً تعويض نسياني ذلك، قبل أنْ أطلبَ إليها أنْ تقف حيث هي لألتقط لها صورةً تاريخيّةً تؤرِّخُ مصالحتنا العظيمة. ابتسمتْ للفكرة ولمْ يبدُ عليها أيُّ انزعاج، بل كلّ الرضا. أمّا أنا فقد كنتُ ملوّنًا بأحاسيسَ سرّيّة وحده قلبي يفضحها. ركضتُ باتّجاه غرفتي غير آبهٍ بسؤالِ علياء المستغرب خروجي من غرفة أمّي. حين عدتُ حاملاً الكاميرا، حاولتْ بشكلٍ مُلِحٍّ إيقافي من دون جدوى. أمّا هناك، في الغرفة، فقد كانتْ أمّي تسوِّي شعرها انتظارًا لصورةٍ حَبَّرتْ حياتي بمدادٍ جديد.

ـ «الله»!

شهقتْ أمّي. أينعتْ الكلمة في قلبي خمائلَ دفءٍ مُستَلَّةً من أنفاسها التي لمْ تتوقّفْ عند تلك الهاء الهامسة. كانتْ عيناها تتّسعان وتنصبّان على ذلك المستطيل الأزرق اللامع الذي وضَعته على حامل اللوحات الخشبي. نهضتْ باتّجاه اللوحة من على مسافة مترٍ تقريبًا من كرسيّها الأمامي بمحاذاة طاولة الطعام. خطتْ خطواتٍ متسارعة. توقّفتْ لحظةً لتتنفَّسَ دهشتها، ولأتنفَّسَ نبضًا متسارعًا. «الله! الله! الله!». كرَّرتها مرّاتٍ أخرى بمدٍّ متسارع ومتلاحق، فيما هزَّتْ رأسها بلطفٍ يمينًا وشمالاً.

لا تتمايلُ أمّي عادةً، لكنّها بدتْ في وضعٍ يتأهَّبُ للرقص

حينها. أمّا أنا فرقصتُ في سرّي ورحتُ أراقبُ ملامح أمّي المتسمّرة في اللوحة. «جميلة!» هتفتْ سارة وهي تضعُ قطع الكعك في الصحون البيضاء الدائريّة. نطقتها وكأنّها تضحك. «متى سيأتي دوري؟ أم أنّنا لا نستحقّ؟». سألتني علياء وهي تضمُّ ابنها محاولةً ألّا يُفلِتَ منها باتّجاه الطعام الملوّن على الطاولة. «قريبًا إن شاء الله. من عيوني. ولو؟!». أجبتها. «عادي؟»، سألتني أمّي بينما كانتْ تمُدُّ يدها باتّجاه اللوحة. الكلُّ هكذا يحبُّ أنْ يلمسَ اللوحة بيده كأنَّ في لمسها إدراكًا لسرّها أو فحصًا لجودة العمل من عدمه. أنا لستُ استثناءً لأنّي أقومُ بذلك أيضًا كطفلٍ إذ أضعُ إصبعي على سطح اللوحة وأحرِّكها في اتّجاهاتٍ مختلفة استطلاعًا لملامحها وإلقاءً لتحيّة عجلى. أومأتُ موافقًا. قرَّبتْ أصابعها من سطح الزجاج الذي حاولتْ فركه بإحدى أصابعها خشيةَ غبارٍ محتمل. ابتسمتُ فيما كانتْ تتأمّلُ اللوحة وتسألني دون أنْ ترفع ناظريْها نحوي عن النصّ المكتوب. «وألقيتُ عليكَ محبّةً منّي» أجبتها. «يا سلام!». سبقتْ سارة أمّي في التعليق واقتربتْ منّا: «جميل!». علّقتْ أمّي ببطء وهي تبتعدُ خطوةً إلى الوراء لترى اللوحة بشكل أوضح. حملتْ علياء ابنها الذي حاولَ الإفلات منها واقتربتْ هي الأخرى. كان النصُّ بالخطّ الديواني الجليّ على شكل دائرة. اخترتُ هذا الخطّ لأنّي ألفيته أكثر بهجةً واحتفالاً وإيقاعًا ممّا يجعله الأكثر ملاءمةً للمناسبة، فالخطّ إيقاعٌ

بالدرجة الأولى. حين رأيتُهنَّ غارقاتٍ في تأمّل اللوحة أحسستُ بدفءٍ سرِّيٍّ ينمو. نما شيءٌ آخر جعلني أرفعُ يدي باتّجاه اللوحة. «أترينَ هذا المِداد؟». سألتُ لأجذبهنَّ إليَّ. أمّي لمْ تبرحْ مكانها وتركيزها. أمّا سارة فقد تراجعتْ إلى الوراء لتأخذ قطعةً من البسكويت المحلّى بالشوكولاتة، وهي تومئ إليَّ بمتابعة حديثي لأنّها تسمعني. أنزلتْ علياء ابنها وأحكمتْ الضغط على يديْه. لمْ أنتظر الإجابة بالطبع. شرعتُ أشرحُ لهنَّ وصفة المداد التي وجدتها في كتاب ابن مقلة وجهدي الخاصّ في جعل لون المداد أزرق، على حين أنَّ لونه أسود في الوصفة. استرسلتُ في شرح المدّة والجهد الذي بذلته لأظفرَ بالمداد كما هو، فضلاً عن اختبار جودته. لمْ أنسَ إخبارهنَّ بأنّي وجدتُ ابن البوّاب يُثني على هذه الوصفة من المداد من حيث جودته وطول بقائه، وهو ما منحني حماسةً كبرى لتحضيره، فأنا من عشّاق خطّ وآراء ابن البوّاب أيضًا.

أوشكتُ أنْ أقصَّ عليهنَّ قصّة الخطّ الديواني التي لمْ يسمعنها منّي من قبل، لولا انتباهي إلى ابتعاد علياء مع ابنها إلى أقصى الطاولة حيث ألقمته ملعقةً من الكريم كاراميل التي حضَّرتْها. توقّفتُ هنيهةً لأرى إنْ كانتْ تعتزمُ العودة أم لا. لمْ يبدُ أنّها تودُّ ذلك، لأنّها قرَّبتْ صحنَ الحلويات المشكّلة منها، موقفةً أصابعها في الهواء في حالة تأهّبٍ للانقضاض على قطعة الحلوى المختارة من دون أنْ تلتفتَ إليَّ. أشحتُ عنها.

انتبهتُ إلى سارة التي جلستْ على مقربةٍ منّي. لا صحنَ حلويات مشكّلة أمامها لتنشغلَ به. فقط كانتْ تثني ورق التجليد الأزرق ثنياتٍ متعدّدة، محاولةً صنع أشكالٍ مختلفة سرعانَ ما تهدمها لتعيدها إلى شكلها الأوّل. أخفضتُ عينيَّ قبل أنْ أرفعهما باتّجاه أمّي. وضعتُ يديَ في منتصف اللوحة مجدّدًا. قلتُ لأمّي بأنّي أحببتُ أنْ يكون الشكل دائريًّا، لأنَّ الدائرة تعني الكون. هذه المرّة كنتُ أتحدّثُ مصوِّبًا ناظريَّ عليها وحدها. اكتفتْ بهزِّ رأسها أعلى وأسفل بعينيْن تصغران عند النظر في اللوحة، لكأنّما تختبران صحّة كلامي، أو تحاولان رؤية ما أقول. أخفضتْهما هربًا، فيما لمْ تزلْ يداها تطرقان الطاولة بهدوء. حاولنَ كلّهنَّ النظرَ إليَّ رغم كلِّ ذلك. غير أنّي فهمتُ كلّ شيء. كالعادة دائمًا. لا داعي للاستغراب. لا أحدَ يكترث. عادي. ليس مهمًّا. ربّما ما أقوله زائد. فائض. لا داعي له. لمْ أشأ التوقّف عند ذلك حينها. المهمُّ أنَّ لوحتي نالتْ إعجاب أمّي أوّلاً، ومن ثمَّ أختيَّ. «جميل!»، قالتْ أمّي معلّقةً على حديثي، محاولةً إنقاذ الموقف أو للتعبير عن انتباهٍ لمْ يتحقّقْ.

«سبحان مُغيّر الأحوال!»، قالتْ سارة بينما كانتْ تحدّجني بنظراتها منتظرةً ردّة فعلي على كلامها. غير أنّي لمْ أجبْ. ربّما ابتسمتُ. لستُ أدري. ناولتني كوب عصير البرتقال كأنّما لتتخلّصَ منه، ومضتْ مسرعةً باتّجاه عيسى لترى

إنْ عثرَ على الشيء الذي أخفته عنه. تحبُّ أنْ تلعبَ هذه اللعبة منذ صغرها. أتذكّرُ أنّها كانتْ غالبًا ما تنتصرُ علينا أنا وعلياء فيها. تملكُ قدرةً عجيبةً على إخفاء الأشياء ليس في أصعب الأماكن وتلك التي لا تخطرُ على بالٍ وحسبُ، وإنّما حتى في الأماكن العاديّة والواضحة بطريقةٍ غريبة كأنْ تخبّئها في درج طاولة المرآة، أو على طاولة كتابة واجباتنا المدرسيّة، أو على رفِّ كؤوس الماء في المطبخ. لستُ أنسى ملامحها الواثقة والمطمئنّة إلى أنّنا لن نعثر على ما خبّأته، تلك الثقة التي لمْ تهتزَّ يومًا وفشلتُ طيلة تلك السنين في زعزعتها إلّا لمامًا.

مرّةً خبّأتْ مشطها في علبة قصبي، وكان سقفُ رهانها حينها عاليًا. فإنْ عثرتُ على مشطها الوردي، فسيكون كلّ المال الذي كانتْ تجمعه في حصّالتها الذهبيّة التي تسمّيها «الكنز» لي. أمّا إنْ أخفقتُ، فستطلبُ هي ما تريد دون تحديد. المال الذي في الحصّالة ليس قليلاً أبدًا. ليس لأنّي تثبّتُّ من ثقل الحصّالة عندها فحسب، وإنّما لأنّي أعرفُ حرص أختي الشديد على جمع الأموال والاحتفاظ به فيها على مدى طويل، فضلاً عن أنّها مقتصدة في الإنفاق، على النقيض تمامًا من علياء التي كانتْ تلقّبها «بالبنك». كانتْ علياء تأتي إلى غرفتي مسرعةً وهي تسألُ لاهثةً: «أين البنك؟». لا تمهلني كي أنهي ضحكتي. تسألُ مرّةً أخرى ملحّةً فأعلمُ أنّها بحاجةٍ ماسّةٍ للمال. يترافق ذلك عادةً مع اعتزام أمّي الذهاب بهما إلى

السوق، فعلياء دائمًا مفلسة. أنا أيضًا استدنتُ منها مرّاتٍ عديدة وإنْ بشكلٍ أقلَّ من علياء. «أصرِفُ عليكم؟!». جملتها المفضّلة حين تسلّمنا المال الذي نريد بعد أنْ تستخرجه من الحصّالة الأخرى التي سمّتها «صندوق الطوارئ». نكونُ أمامها حينها بملامح مضطربة. نودُّ الردَّ، لكنّنا نخشى أنْ تحجِمَ عن مساعدتنا، فنصمت على أمل أنْ نثأرَ منها ذات يوم. ترمقُ الذي ستسلّمه المال بعينيْن ثابتتيْن مستفزّتيْن، فيما ترتسمُ على شفتيها ابتسامةٌ ماكرة. هذا ليس كلّ شيء، إذ تكونُ أكثرَ خبثًا حين يمضي أسبوعٌ من استدانتنا منها ولمْ نسلّمها حقّها بعدُ. حينها فقط يحلو لها أنْ تخبر جميع مَنْ تعرف، وكلَّ مَنْ تُصادِفُ، بأنَّنا مدينون لها. كأنْ تخبرَ شيماء بأنّي استدنتُ منها خمسة دنانير منذ شهر ولم أرجعها حتى تلك اللحظة، أو عندما أخبرتْ ليلى أخت يحيى جارنا عن أنّي استدنتُ منها مبلغًا من المال لأشتري به مجموعةً جديدةً من أشرطة الألعاب الإلكترونيّة. كنتُ لا أحبُّ أنْ آخذ مالاً من والديَّ لأجل ذلك خشية جعلها هديّة تفوّقي رغم أنّي لمْ أطرح الموضوع عليهما بتاتًا. لذلك كنتُ أشتريها ممّا أجمّعه.

في تلك المرّة، لمْ يكنْ المالُ الذي معي كافيًا لا سيمّا وأنّه لا بدّ لي من شراء ماسكةٍ جديدة بعد تعطّل أغلب أزرار الماسكة القديمة التي لديّ إثر ضغط يحيى الجنوني عليها، حينما نلعب معًا لعبة القتال وتحرير المدينة. يومها قال لي ابن

جيراننا يحيى بعد أنْ هزمته كالعادة أمام كلّ الجيران، بأنّه لولا مالُ أختي لما تمكّنتُ من شراء أيِّ شريط! لا تتردّدُ في تذكيرنا بأنَّ هذا حقّها ولا عيبَ أو منقصة في معرفة أيِّ أحدٍ بذلك، حين نواجهها أنا وعلياء لتكفَّ عن فضحنا أمام الملأ. كلُّ ذلك هيّنٌ أمام ما كانتْ تفعله بنا بعد «أسبوع الهدنة» كما تسمّيه، إذ تعمدُ إلى زلزلتنا لنسدِّدَ ما علينا في أسرع وقت. في كلِّ مكانٍ قصاصة ورق التذكير: «لا تنسَ. (المبلغ بالدينار). حقٌّ سارة». هكذا كانت تكتبُ بخطّها المرتعش دائمًا، وتلك الراء الطويلة التي تشبه اللام حيث كنتُ أشاكسها بمناداتها: «سالّة» وتغضب. أنا أعني ما أقول حينما عبّرتُ بقولي إنّي أجدُ القصاصاتِ في كلِّ مكان، لأنّها لا توفِّرُ مكانًا ممكنًا إلّا وتضعُ فيها قصاصةً. في غرفتي مثلاً أجدها معلّقةً وملصقةً على الباب، وعلى خزانة ملابسي، وعلى طاولتي، وداخل كلّ دفاتر وكتب المدرسة، وفي حقيبتي، وعلى لعبتي «الأتاري»، وعلى كلّ شريط ڤيديو، وعلى المرآة، وعلى زجاجات عطوري، وعلى مشطي، وفي الحمّام على علبة الشامبو، وعلى الصابون، وعلى المفركة. وفي المطبخ كلّه، وفي الصالة كذلك. ثم إنّها لا تكتفي بذلك إذ كانتْ تعلّقُ في غرفة والديَّ ورقةَ إشعارٍ بذلك لا تزيلها إلّا بعد تسديد المبلغ. إنّها بذلك بلّغتْ رسالتيْن في آنٍ: الأولى لوالديَّ إشعارًا وضمانًا لحقّها مخافة سرقتنا إيّاها، فيما الأخرى وسيلة ضغط علينا من حيث

أنَّ والدينا على علم باستدانتنا من أختنا الصغرى، ولا يليق بنا التأخّر في تسديد المبلغ أكثر من ذلك، لأنَّ كل يوم محسوبٌ علينا، ولهذا أيضًا لنْ نتمكّن من مجرّد التفكير في سرقتها كما كانتْ علياء تهدّدها دائمًا في نوبات حنقها من استفزازاتها الدائمة لنا.

مرّةً ارتديتُ طقم العيد، وكنتُ قد قرّرتُ غضَّ الطرف عن كلّ تلك القصاصات المستفزّة التي وجدتها في غرفتي ابتداءً من سريري، مرورًا بالحمّام عند الاستحمام، وليس انتهاءً بها أمام المرآة. شعرتُ بوخزٍ في قميصي الكحلي يومها. مددتُ يدي فإذا هي قصاصة سارة. رميتها كلعنة. وضعتُ محفظتي داخل جيب بنطالي فلامستْ أصابعي قصاصتها. عرفتها من ملمسها الرقيق. استخرجتها على عجلٍ ورميتها على مقربةٍ من سابقتها. هززتُ رأسي تبرّمًا محاولاً التفكير في حيلةٍ تجعلُ تلك المجنونة تكفُّ عن استفزازنا وابتزازنا بكلّ تلك الوسائل المزعجة. حين ارتديتُ الجاكيت أحسستُ بثقله في الجهة اليسرى. استغربتُ ذلك لأنّي أرتديه للمرّة الثانية بعد الأولى التي قايسته فيها. وضعتُ يدي داخل جيب الجاكيت لأفاجأ برزمةٍ من القصاصات داخلها. جننتُ يومها وأوشكتُ على خوض حربٍ معها. لكن ردّها البارد هو هو: «ادفعْ لترتاح، هذا حقّي!».

من هنا، ربّما، امتلكتْ سلطةً رمزيّةً علينا رغم أنّها

أصغرنا. صرتُ أنا وعلياء أكثر ميلاً لاسترضائها، لأنّنا بتنا، وإنْ بشكلٍ متفاوت، بين حالتيْن: إمّا في حالة استدانة منها ولمْ نسدّدْ بعد، أو في حالة الشروع في أيّ وقتٍ بالاستدانة منها. من هنا ما عادتْ السنوات العشر التي تفصلُ بين علياء وسارة ذات قيمة ما دامتْ علياء المفلسة في حالة الحاجة الدائمة لأموال سارة. أمّا بالنسبة لي فعامان لا شيء! أجل، عامان لا يمثّلان أيّ شيء. ها قد فهمتني. «سبحان مغيّر الأحوال». جملةٌ غير بريئة. قالتها ومضتْ عنّي لتجعلني أتذكّرُ أنّها المرّة الأولى التي أكونُ فيها على هذه الحال في حفل عيد ميلاد أمّي منذ سنواتٍ عديدة.

في العام الماضي مثلاً، لمْ أكنْ بهذه الحال حينما وصلتُ متأخّرًا عن الحفلة بسبب ارتباطي باجتماع يومها. «أنتَ لا تهتمّ، وأنتَ لستَ مهمًّا أيضًا لنا». قالتْ لي أمّي حانقةً، بينما وضعتْ هديّتي لها التي اشترتها سارة، على الطاولة القريبة منّي في إشارةٍ إلى عدم قبولها منّي. أمّا في الأعوام الثلاثة السابقة، فقد وجّهتْ أختيَّ بعدم إخباري بموعد الحفلة، اختبارًا لي إنْ كنتُ أنجحُ في تذكّر ذلك. لكنّي كنتُ غالبًا ما أفشلُ في ذلك أو أنشغلُ قبلها بما يجعل استعدادي سيّئًا. قبل تلك الأعوام الخمسة، كانتْ لوالدي ـ رحمه الله ـ الكلمة العليا، وكنّا نحنُ نتحرّكُ في إطار ضيّق. ذلك أنّه يشرفُ على كلّ شيءٍ بنفسه، ونكونُ نحن معهما لمدّة قصيرةٍ في الحفل، قبل أنْ يدعانا

ذاهبيْن للعشاء خارجًا، بعد الاطمئنان إلى أنّنا بصدد تناول وجبة عشائنا في البيت. لا زلتُ أتذكّرُ العشاءات الثلاثة المقدّسة عندهما للمناسبات الثلاث: ذكرى زواجهما، وعيد ميلاد أمّي، وعيد ميلاد أبي. أجل، تغيّر الحال في تلك الليلة. «سبحان مغيّر الأحوال!»، قلتُ في نفسي بينما تطلّعتُ إلى أمّي التي كانتْ تحدِّثُ علياء في أقصى الزاوية. لمْ تغيّرْ علياء عادتها في النظر إلينا حينما تحدِّثها أمّي. تعطي أمّي أذنيْها فيما تتفرّسُنا عيناها لنشعرَ بأنّنا المعنيّون بالحديث. لستُ أعلمُ إنْ كان ذلك صحيحًا أم لا. لكن إحساسي هو ذات إحساس سارة التي نظرتْ إليَّ نظرة استفسار عمّا إذا كان الحديث يخصّنا. همّتْ بالاقتراب منّي لولا رنين الهاتف. توجّهتْ إليه بينما قرّرتُ نقل اللوحة من مكانها ذاك إلى تعليقها أمام الزاوية المقابلة لباب الصالة.

«أمّاه! خالتي!». سمعتُ سارة تقول لأمّي وهي تضعُ يدها على نصف السمّاعة السفلى. نهضتْ أمّي من مكانها مسرعةً وهي تومئ إلى علياء في ما يشبه الاعتذار. رمقتني بنظرةٍ عجلى. نظرة مترقّبة أو قارئة. لمْ أدرِ في ما فكّرتْ تلك اللحظة. أنا فكّرتُ في أشياء كثيرة لستُ أعلمُ كيف انثالتْ هكذا بغتةً. أوّلُ تلك الأشياء أنّي تذكّرتُ زيارتي الأخيرة لها قبل ثلاثة أشهر. منذ ذلك اليوم، تغيّرتْ أمورٌ عديدة. لمْ أكنْ بصدد تذكّر أيِّ شيءٍ، لأنّ أشياءً أخرى اجتاحتني بغتةً. لستُ

أنكرُ أنَّ قلبي كان يهذي بمخاوفَ مبهمة من تلك التي ترسمُ الإحساس من دون أنْ يُبصرها تمامًا، لكنّي كنتُ أكادُ ألمسها. اقتربتْ منّي سارة. «إنّها خالتكَ يا حبيبها!». قالتْ وهي تتفحَّصُ وجهي بعد غمزةٍ سريعة. لمْ أجبها. كانَ بصري مصوَّبًا هناك حيث أمّي تتحدَّثُ وتضحكُ وتهزُّ رأسها موافقةً على أشياء لمْ أسمعها من مكاني.

ليسَ فضولاً، لكنّي أحسستُ بأنّه لا بدَّ لي من معرفة كلّ الحديث الذي يدورُ بينهما. «ستتحدَّثانِ عنّي»، قلتُ. لا أعلمُ إنْ قلتُ ذلك بصوتٍ مسموعٍ أم في سرّي. اشتركتْ سارة معي في مراقبة أمّي بعد ذلك. أمّا علياء، فقد أمسكتْ بابنها محاولةً استجوابه عن عدد قطع الحلوى التي أكلها من الصحن، كما تفعلُ دائمًا. مرّرتْ أمّي يدها خلال شعرها بينما كانتْ تتحدّثُ، مرّاتٍ متقاربة. هذه من علامات ارتياحها. أنا أعلمُ ذلك. انتظرتُ طويلاً انتهاء تلك المكالمة. تبخّرتُ مرّاتٍ وتكثَّفتُ أخرى، ولمْ تنتهِ تلك الأحاديث التي امتدّتْ بضحكاتٍ عالية من أمّي. أمسكتُ بالملعقة الصغيرة الموضوعة على حافّة صحن الكريم كاراميل. وضعتها داخل القطعة الهلاميّة. توقّفتُ لحظةً لأنّي لمحتُ اقترابَ يد أمّي من الجزء السفلي للهاتف. «ستغلقه». خمّنتُ. حضّرتُ نفسي للنهوض باتّجاهها، لكنّها مدَّتْ يدها في الهواء بينما كانتْ تمسك بالسمّاعة قبل أنْ تعودَ لمواصلة حديثها. مجرّد عمليّة تنشيط

ليدٍ تعبتْ من طول المكالمة. ضغطتُ على الجبل الأصفر. انشقَّ الجبل إلى نصفيْن كبيرين. عينايَ هناك حيث ذلك الحديث الذي لا أسمعه. ضغطتُ ثانية باتّجاهٍ آخر. حاولتُ رفع ما أخذته بالملعقة. لمْ أجدْ القطعة متماسكةً كما يجب. استغربتُ ذلك. نظرتُ إلى الصحن. لا ملامحَ للكريم كاراميل سوى لونه. كأنّها تعرّضتْ لقصف جوّي. ليس مهمًّا لديَّ. «لمَ كنتُ على تلك الدرجة من التوتّر؟»، سألتُ. لا أعرفُ ما الإجابة. لا أعرفُ إنْ كنتُ أمتلكها حقًّا أو أنّني أودُّ معرفتها. حاولتُ أنْ لا أثيرَ انتباه أختيَ لذلك. حوَّلتُ ناظريَّ عن أمّي. سارة غير موجودة، أمّا علياء فقد كانتْ تهمُّ بوضع ابنها النائم على الكنبة. . كنتُ في مأمنٍ منهما إذن.

نظرتْ إليَّ أمّي للمرّة الأولى. من عادتها أنْ لا تنظر إلى أحدٍ حين تتحدّثُ بالهاتف. تحبُّ الانشغال بالسقف أو الأشياء الموضوعة أمامها. ألقتْ سؤالاً عابرًا كأنّي فهمته، قبل أنْ تحوّلَ بصرها عنّي. لمْ تبتسمْ حينها. فكّرتُ بالعودة إلى غرفتي. لمْ أشأ أنْ تقرأ أمّي كلَّ ذلك الاضطراب بداخلي كأنّي اقترفتُ جريمةً ما. حاولتُ التذكّر إنْ كانتْ هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها أمّي تتحدّثُ عبر الهاتف مع خالتي، منذ ذلك اليوم أم لا. «نعم». أجبتُ. أومأتُ إلى أمّي التي عادتْ للتحديق بي، مرتابةً من نظراتٍ قلقة. نهضتُ من دون أنْ أشعر بالرغبة في أخذ صحن الكاراميل معي، ولا في

أيّ شيءٍ آخر. التفتتْ أمّي إليَّ. ضمَّتْ أصابعها إلى المنتصف قبل أنْ ترفع سبّابتها وترخي البقيّة. أومأتُ موافقًا، بينما بلّلتني أفكارٌ شتّى بأحاسيس مرتبكة. استدرتُ ناحية علياء التي أسندتْ رأسها على الكرسي واستسلمتْ لمتابعة فيلم جديد. «تعالَ إلى غرفتي!» قالتْ لي أمّي بعد أنْ سمعتُ صوتَ إرجاع السمّاعة. حاولتُ سؤالها بعينيَّ عن السبب. لمْ تجبني. سألتها بصوتٍ مسموع. «ستعرف!» أجابتني ومضتْ باتّجاه غرفتها. لمْ تكنْ حادّةً لكنّها بدتْ مضطربةً نوعًا ما. تبعتها بخطواتٍ متثاقلة. لا بدّ أنّ الأمر يتعلّقُ بخالتي. ما استجدَّ؟ لستُ أدري شيئًا سوى أنَّ تلك الضحكات تطمئنني. هل كلّ شيءٍ مطمئنٌ سوى عنّي؟ «ستعرف»؟ هذه إجابةٌ ليستْ حاسمة. إنّها لا تتقنُ سوى أنْ تفتحَ عقلي على كلّ الاحتمالات، وكلّ الاحتمالات تيه!

في غرفة أمّي، استعدتُ تلك الليلة العظيمة. الصورةُ التي توثّقُ مصالحتنا ما تزالُ مكانها. حين أتأمّلها أحسُّ بأشياء عديدة، أوّلها ربّما تلك البسمة الدافئة التي افتقدتها بشدّة كلَّ تلك السنين الماضية. لا أريدُ الندم. ليس لأنّه غير متحقّق، ولا لأنّه يجعلني أستعيدُ كلّ شيءٍ بعدسةٍ أخرى تضخُّ الحنينَ في شراييني. لكن، لأنَّ جزءًا كبيرًا ممّا حدثَ لستُ أنا مَنْ اقترفه. لا أريدُ، أيضًا، لوم المُسَبِّب. ما أردته في تلك اللحظة معرفة أمرٍ آخر بعيدٍ كلَّ البُعد عمّا جرى تلك الليلة،

لكنّه يخصّني أيضًا. لستُ أستطيعُ تخمينه حقًّا. في داخلي ثمّة أشياءٌ مضطربة بعد سماعي لاسم خالتي. هل كان حنينًا؟ لمْ أودَّ التفكير في هذا الاحتمال إنْ كان صحيحًا أم لا. وددتُ، فقط، معرفة كلّ ما في الأمر دون مسافةٍ من الوقت تجعلني أكثر قلقًا وأقلَّ صبرًا.

الانتظار عتبةٌ شاهقةٌ نحو الحدث. قد نخفقُ في اجتيازها إنْ لمْ نكنْ نملكُ قدميْن ثابتتيْن في الصبر. كنتُ برجليْن مشدودتيْن، بينما كانتْ أمّي مشغولةً بإخراج ألبومات الصور القديمة. تلك الألبومات التي تخصّها وحدها وتمنعنا من الاقتراب منها منذ الصغر. أنا أعرفها جيّدًا. كلّها زرقاء. الألبومات الأخرى بيضاء وسوداء ورماديّة. لمْ أدرِ لمَ استدعتني إليها في غرفتها لتخبرني ما حدثَ بينها وبين خالتي، ثم تتركني هناك على الكرسي وتنهمك في استخراج الألبومات وتصفّحها! حين لا تتحدَّثُ أمّي أعرفُ بأنّها تؤجِّلُ الحديث إلى ما بعد انتهائها ممّا كانتْ تفعله. كنتُ أراقبها وهي تفتحُ الألبومات الزرقاء وتتصفّحها. ملامحها منكمشة. بدا أنَّ بحثها كان عن صورةٍ محدّدة أو ربّما عن مجموعة صور، إذ لمْ تكنْ تتأمَّلُ الصور وتتفحّصها. فقط نظراتٌ خاطفةٌ، ثم تتحرّكُ أوراقُ الألبوم بسرعة قبل أنْ يُركَنَ إلى جوار سابقيه بسرعة.

في هذه الألبومات، صورةٌ لي أحبّها جدًّا. كانتْ صورتي

يوم ذهابي الأوّل للمدرسة. لا زلتُ أتذكّرُ أنَّ الجوَّ باردٌ يومها، وهو ما جعلَ أمّي تُلبسني معطفًا رماديًّا فوق قميصي الأبيض وبنطالي الرمادي. أتذكّرُ الشريطة الحمراء التي كانتْ علامةً على صفّنا. وضعتها أمّي على جيب القميص، وحرصتْ على أنْ تكون واضحةً لكي يراها الأستاذ. أحبُّ تلك الصورة لأنّي قبلها، لطالما وددتُ الذهاب إلى المدرسة. ليس حبًّا في التعلّم بقدر القول بأنّي ذاهبٌ إلى المدرسة وعائدٌ من المدرسة، كما كان يتشدَّقُ عليَّ ابن عمّي الذي يكبرني بعاميْن. صحيحٌ أنّي ذهبتُ إلى الروضة قبلها، لكنّه كان يقولُ لي إنَّ الروضة لا تمثِّلُ شيئًا مقارنةً بالمدرسة. في ذلك اليوم شعرتُ بأنّي أبزّه وبأنّه منذ ذلك التاريخ لنْ يعود للحديث عن مغامراته في المدرسة وحده، كما شعرتُ بأنّي أصبحتُ رجلاً كما كان يريدني أبي أنْ أكون «رجل البيت». لستُ أحسُّ بأنَّ تلك الابتسامة المزهوّة التي ارتسمتْ على شفتيَّ جرّاء ذلك مزيّفة، لا سيّما أنَّ أمّي قالتْ لي يومها: «أصبحتَ رجلاً!». هل لذلك كانت هذه الصورة بالذات من بين كلّ صوري هنا، في هذه الألبومات الخاصّة بأمّي؟ لمْ أكنْ منتبهًا حقًّا إلى أنَّ أغلب صورنا أنا وأختيَّ في الألبومات البيضاء، بينما صورٌ قليلةٌ جدًّا لنا في الألبومات الزرقاء حتى قبل ستّة أعوام.

يومها، قرّرتُ جمع صوري كلّها لآخذ منها نسخةً أحتفظُ بها. طبعًا لا يمكنني نسيانُ تلك الصورة ولا غيرها ممّا انطبع

في ذاكرتي قبل أيِّ شيء. ظننتُ أنّها ضاعتْ لولا أنْ أخبرتني علياء بأنّها عند أمّي كما أخبرتْها لأكفَّ يومها عن تحميل سارة مسؤوليّة ذلك لأنّها تحتفظ بألبوماتنا في غرفتها! هممتُ بسؤال أمّي عن تلك الصورة لولا رؤيتي لها مصوّبةً ناظريْها على صورةٍ محدّدة. «وجدتها؟»، سألتُ في نفسي. ملامحها الثابتة أجابتْ عن ذلك. أمّا عيناها الغائمتان فقد قالتْ ولمْ تقلْ. «ما هي؟». سألتُ في سرّي أوّلاً. حاولتُ أنْ أبقى صامتًا كما كنتُ. كدتُ أنجحُ لولا أنْ ضمّتْ أمّي الصورة إلى صدرها. شبكتْ أصابع يديها على الصورة التي عانقتْ صدرها. ضغطتْ عليها وهي تتطلّعُ إلى الأعلى كأنّما لترى شيئًا ما أمامها.

«ما بكِ؟»، سألتها بينما جثوتُ على ركبتيَّ بالقرب منها. لمْ تجبني. فقط أخفضتْ رأسها كأنّما لتحبس دمعة. أعدتُ سؤالي مُلحًّا. عيناها في مكانٍ بعيد. تناولتُ الصورةَ التي تداعتْ من يديها دون أنْ تشعر. قلبتها. لمْ أجدْ فيها شيئًا مدهشًا. بمعنًى آخر: لا شيءَ في هذه الصورة الملوّنة بالأبيض وبالأسود يستدعي كلّ ذلك. رفعتُ بصري باتّجاهها. الشرود ذاته. دون أنْ أشعر، مددتُ يدي إلى كتفها. «أمّاه!»، ناديتها فيما يشبه السؤال. انتبهتْ إليَّ مذعورة. كأنّي أيقظتها من عالم سحيق. أجالتْ بصرها عنّي إلى حيث الصورة. حين انتبهتْ إلى أنّها في يدي سحبتها من دون استئذان. أعادتْ تأمّلها.

«تلك الأيّام!» ـ قالتْ بصوتٍ بدا أنّه بُحَّ من شيءٍ غامض. «ما بها؟»، سألتُ من دون أنْ أتلقّى إجابة. حاولتُ مراقبتها لعلّها تجيبُ بحركةٍ ما، فيما تكثّف الفضولُ بداخلي. مرّرتْ أصابعها على وجه الطفلة ذات الجديلتيْن القصيرتيْن. كانتْ الطفلة واقفةً في وضعٍ مائل على رجلها اليمنى، فيما تحملُ رجلها اليسرى بيدها. أمامها تحلّقتْ مجموعة فتيات، إلّا أنَّ أمّي كانتْ تركّزُ عينيها على فتاةٍ طويلةٍ في مقدّمتهنَّ. تلك الفتاة التي لا توضحُ الصورة القديمة ملامحها جيّدًا، لكنّها ظهرتْ ناصعة الوضوح بالنسبة لعينيّ أمّي اللتيْن ما انفكّتا عنها. كلُّ ما استطعتُ أنْ أراه من مكاني هو ذلك «البُخْنُق» الذي غطّى شعرها ومنتصف جسدها، بينما تكفّل الثوب تحته بستر باقي جسدها حتى قدميْها. أمّا تلك الفتاة المتأهّبة لقفزةٍ لستُ أدري إنْ حدثتْ أم لا، فلمْ تكنْ ترتدي ذلك النوع من الحجاب القديم، وإنّما الثوب التقليدي في تلك الأيّام. وددتُ النظر إلى البقيّة، لكنَّ كلّ التركيز على تلك الفتاتيْن من دون غيرهما جعلني أترقّبُ شيئًا ما أو أمرًا ما قيد الحدوث. كأنَّ الحركة التي ثبّتتها عدسة المصوّر وجعلتها بين يدي أمّي في تلك اللحظة، لمْ تمتْ. كأنَّ أمّي كانتْ بانتظار اكتمال القفزة أو نقصانها. كانت الفتاة في المستطيل الرابع على الجهة اليسرى من المستطيل الأفقي الكبير الذي يلي المستطيل العمودي الطويل الذي ضمَّ المستطيليْن الأوّليْن. أمامها مستطيلان

عموديّان، قبل أنْ ينتهي الشكل المرسوم بعصا شقّتْ التراب بمستطيل أفقي كبير يضمُّ مستطيلَيْن بالتساوي. بالقرب من رجلها اليمنى علبة ملمّع الأحذية (الباليس). كنتُ أعرفُ هذه اللعبة. لمْ ألعبها، ولا أتذكّرُ قوانينها جيّدًا. على أنّي رأيتُ الفتيات يلعبنها في مسلسلاتنا المحلِّيّة القديمة التي كنّا نتحلَّقُ حولها عند وجبة الإفطار في شهر رمضان. اسمها «السِّكَّيْنة» أو «السَّكّون» على اختلاف اللهجات.

«انظرْ! هذا «الجيز» سرقناه من أبي ـ رحمه الله ـ وقد عاقبنا يومها. كان جديدًا ونحن مرّغناه له في التراب وبآثار خطوات الفتيات»، قالتْ أمّي من دون أنْ تنظرَ إليَّ. «الجيز». بالجيم المخفّفة. نعم، إنّه اسم ملمّع الأحذية. شجّعني حديثها للحديث بعد ابتسامةٍ سريعة. «هذه التي تلعبُ هي أنتِ؟» ـ سألتها ظانًّا أنّها هي حقًّا لولا أنّها هزّتْ رأسها نافيةً بعينيْن تستنطقانِ الفتاة. «خالتك!»، أجابتني وهي ترفعُ عينيْها باتّجاهي. أورقتْ الكلمة في داخلي أشياءَ متدافعة. «خالتي؟»، سألتُ بدهشة وهممتُ بتناول الصورة من يد أمّي التي حاولتْ استنطاق أشياء أخرى من عينيَّ الهاربتيْن عنها. أعطتني الصورة بيد وهي تومئ إلى تلك الفتاة الطويلة الواقفة التي تأمّلتها كثيرًا. «أتعلمُ مَنْ هذه؟»، سألتْ وهي تنظرُ في عينيَّ. كأنّها قرأتْ الإجابة فيهما، أومأتْ موافقة. «هذه أنا». أثنتْ على إجابتي التي لمْ أنطقْ بها. حدَّقتُ في الصورة جيّدًا

محاولاً اكتشاف التغيّرات التي طرأتْ عليها. كأنَّ أمّي انتبهتْ لذلك. «كبرتُ جدًّا يا بُنيَّ!»، أجابتني بصيغةٍ متأوّهة أرغمتني على التوقّف عن التحديق. بل إنّها جعلتني أحسُّ بوخزاتٍ جارحة. حتى الابتسامة التي حاولتُ عبرها نفي ذلك، لمْ تكنْ على ما يرام. بدتْ ذابلة.

صمتُّ مفكِّرًا في ما يمكنُه أنْ يكون سببًا لعودة أمّي إلى هذه الصورة. لمْ أملكْ سؤالها عن ذلك أيضًا. أحسستُ بأنّها ليستْ معي. خاصّةً بعدما عادتْ لتأمِّل الصورة وهي تقرِّبها منها، متأمّلةً ملامح أختها التي لمْ تكن وحدها يومها تراقبها. إلى اليمين، كانتْ الألبومات الزرقاء مكدّسة. فكّرتُ في تناول أحدها اغتنامًا للفرصة، بحجّة البحث عن صورة أخرى لها أو لخالتي.

«قمْ!»، أمرتني أمّي بينما استعدَّتْ للنهوض. إذًا ضاعتْ الفرصة. ليس مهمًّا على أيّ حال. وتابعت بأنّها ستخبرني بكلِّ شيءٍ بعد قليل حينما وضعتْ الصورة على الطاولة الصغيرة بجوار سريرها. «حمامة نودي نودي / سلّمي على سيّودي». غنَّتْ أمّي برأس متمايلٍ بينما تراقصتْ أصابع يديها على ذات الإيقاع المتمهّل. كادتْ علامات الاستفهام أنْ لا تريني شيئًا سواها وهي تزدحمُ وتتدفّقُ وتكبرُ وتتزاحم في عقلي. سألتني إنْ كنتُ أتذكَّرُ هذه الأغنية الشعبيّة. أجبتها بلا.

ابتسمتْ وراحتْ تترنّمُ. كأنَّ سؤالها ذريعةٌ لذلك. ردّدتْ بصوتٍ رَقَّ جرّاء إيقاعٍ هادئ:

«حمامة نودي نودي

سلّمي على سيّودي

سيّودي راح مكّة

ويجيب ثياب عكّة

ويحطّهم في صندوقي»

توقّفتْ مبتلعةً ريقها، ناظرةً إليَّ ببسمةٍ استمرأتْ صمتي وحيرتي أمام ذلك الموقف الذي بدا أقربَ إلى الجنون والهلوسة، منه إلى أيِّ شيءٍ آخر. تابعتْ:

«صندوقي ما له مفتاح

والمفتاح عند الحَدّاد

والحدّاد يَبِّي فلوس

والفلوس عند العروس

والعروس تبّي رَجِل

والرَّجِلْ يبّي عيال

والعِيال يبّون حليب

والحليب عند البقر

والبقر يبّون حشيش»

كانتْ قد جلستْ إلى سريرها، مواصلةً النشيد غير آبهةٍ بي وبأسئلتي التي تكادُ تنفجر. لمْ أكنْ مصغيًا لها أو محاولاً مراقبتها، بقدر ما كنتُ أحاولُ فهمَ ما كان يجري أمامي وقتها. تلك الضحكاتُ التي لمْ أعهد سماعها حينما يدور حديثٌ بين أمّي وخالتي أوّلاً، ومن ثم الاستدعاء المباشر بصيغةٍ حاسمة نوعًا ما إلى غرفتها، مرورًا بالبحث في الألبومات عن صورةٍ محدّدة. صورة عمرها ربّما ضعفُ عمري. وحينما حانتْ لحظة البوح، أتتْ تلك الأغنية التي ردّدتها أمّي بحنينٍ سرّي يظهرُ من كهرباء مَدِّ الحروف الأخيرة. نظرتُ إليها مجدّدًا. أصابعها تعزفُ. رأسها يتمايلُ. جسدها يكادُ يرقص. «هذه ليستْ أمّي!»، قلتُ محاولاً فهم الصورة مجدّدًا. قرَّبَتْ كفّيْها من بعضهما بعضًا. ظننتُ أنّها انتهتْ. غنّتْ مجدّدًا:

«والحشيش فوق الجبل

والجبل يبّي مطر»

صفَّقتْ بهدوء قبل أنْ تغنّي بإيقاعٍ أبطأ:

«والمطر عند الله».

صفَّقتْ صفقةً أخيرةً بابتسامةٍ عريضةٍ قبل أنْ تضحك

ضحكةً قصيرة. كان يبدو عليها الانشراح بعدما انتهتْ من تلك الأغنية التي سمعتُها للمرّة الأولى بصوتها. صوتُ أمّي عاديٌّ جدًّا، لكنّه بدا رقيقًا ودافئًا في تلك اللحظات التي بقيتُ فيها صامتًا محاولاً الابتسام. «أتعرف؟»، سألتني بنبرةٍ دافئة. «ماذا؟»، أجبتُ محاولاً التنحنح. «هذه أكثر أغنيةٍ كانتْ تغنّيها لنا خالتكَ في البيت». لمْ أعلّقْ.

هذه هي المرّة الأولى التي تحدّثني أمّي فيها عن أمورٍ تتعلّق بها وبخالتي. لطالما تخيّلتُ أنْ لا شيءَ يجمعهما معًا، لأنّي طيلة عمري، بخلاف الزيارات العائليّة وبعض المهمّات الصغيرة، لمْ أرَ تقاربًا حقيقيًّا بينهما. «خالتكَ مجنونة!»، قالتْ وكأنّها ترى صورًا أمامها. ضحكتْ. «مجنونة!»، أردفتْ. لستُ أستطيعُ تحديد مقدار دهشتي حينها. سألتُ أمّي عمّا حدث، لكنّها لمْ تحفلْ بذلك، وشرعتْ تحكي لي بعضًا من قصصها المشتركة مع خالتي في تلك الأيّام. لمْ أنتبه إلى جزءٍ كبيرٍ ممّا قالته. ليس لتململي منها، على أنّي كنتُ كمَنْ يجتازُ شارعًا ما ليصل إلى بغيته. وحده رأسي كان يومئ لأجتاز بوساطته حديث أمّي ذاك عن خالتي. هل هذا كلّ شيء؟ لستُ أدري إنْ كان ذلك هو السبب الوحيد فقط. في الحقيقة إنّ الحديث عن خالتي أشعلَ مشاعر مختلفة بداخلي. لا أعرفُ ما هي. ربّما تكونُ حنينًا. ربّما تكون خوفًا أيضًا. خوفًا؟! نعم، ربّما تكون كذلك. طيلة الشهور الثلاثة التي مرّتْ، خفتُ زيارة

بيت خالتي. لمْ تمنعني أمّي، وليس خوفًا منها. الخوفُ منّي أنا. الخوفُ أنْ تفهمَ أمّي ما لا أريده ويعود التوتّر إلى غليانه. خفتُ أيضًا أنْ تفضحني عيوني وتصرّفاتي. بعد تلك الليلة، لمْ أستطع أنْ أفكّر في خالتي بمعزلٍ عن مشاعر أمّي. كانتْ أمّي دائمًا تظهرُ لي بملامحها التي وثقتها في تلك الصورة المعلّقة في غرفتي وغرفتها. ظهورها ذاك حاجزٌ منعني من محاولة التوفيق بينهما. أحسستُ دون أنْ أدري أنّي بين طرفيْن. لستُ بحاجةٍ لذكر الطرف الذي انحزتُ إليه. لكنّ الطرف الآخر لمْ يتركني. صحيحٌ أنّه اكتفى باتّصالاتٍ عابرة طيلة تلك المدّة، لكنّه كان هناك في قلبي يُحاكمني على خيارٍ لستُ أعلمُ إنْ كان ظالمًا أمْ لا.

كانتْ أمّي تحدّثني عن أختها للمرّة الأولى بوصفها أختًا وليستْ كنِدّ كما كنتُ أحسُّ دائمًا. حدّثتني عن قصّة تلك الصورة التي تناولتها مجدّدًا وعانقتها. قالتْ بأنّها تعود إلى تلك «الأيّام البريئة» التي أحسَّتْ فيها حقًّا بعمق أخوّتهما. في تلك الصورة ملامح أمّي السعيدة بتقدّم خالتي نحو المستطيلات الأخيرة من اللعبة خير دليل. حدّثتني عن الساعات الطويلة التي قضتها في تعليم خالتي التي تصغرها بعاميْن هذه اللعبة جيّدًا، بعد أنْ دأبتْ الفتياتُ على السخرية من خالتي لعدم تمكّنها من هذه اللعبة التي كنَّ يلعبنها في الحيِّ أمام جميع المارّة. قالتْ بأنّها فرضتْ نظامًا صارمًا على أختها ذات

السبعة أعوام حينها لتنقصَ من وزنها كي تتمكّنَ من القفز والحجل برشاقةٍ أكثر. لمْ يكن هذا الأمر مريحًا لخالتي المولعة بالطعام، ولا لجدّتي ـ رحمها الله ـ، لكن أمّي لمْ تلبثْ تذكِّرُ أختها بأنّها ستستمرُّ في سماع عبارات السخرية، ما لمْ تأخذْ بأوامرها. حين نجحتْ في ذلك اليوم في اجتياز كلّ تلك المستطيلات وحجز بيت وفق شروط اللعبة، قفزتْ باتّجاه أمّي لتعانقها بكلِّ قوّتها. كان ذلك قبل يومين فقط من عمر الصورة حينما مرَّ بهما خالهما وصوّرهما بكاميرته التي كان يستعيرها من أحد زملائه الإنجليز في شركة «بابكو» حيث عمل. ربّما لمْ تتغيّرْ خالتي كثيرًا بمشاكستها وروحها المرحة. استنتجتُ ذلك من خلال حديث أمّي عنها، وعن ولعها بالغناء داخل بيتهم بتلك الأغنية، وبأغنياتٍ أخرى. فضلاً عن أنَّ خالتي كانتْ تغشُّ بقصد المزاح في بعض الألعاب مثل لعبة «الخُشَّيْشَة» أو «الغُمَّيْضَة»، كما أخبرتني أمّي غارقةً في الضحك. إذ كانتْ تعمدُ دائمًا إلى استراق النظر في هذه اللعبة من دون أنْ تلحظ هي وبقيّة المشاركين فيها، وهو ما كان يمكّنها غالبًا من الظفر بهنّ. لمْ يكنْ يزعجها أنْ يُلقّبْنها «بالغشّاشة»، لأنّها حينها تحفلُ فقط بأنْ لا تخسر.

«هذه ليستْ أمّي!»، قلتُ مجدّدًا ومؤكِّدًا، بينما تابعتْ هي حديثها عن تلك الأيّام وعن ابن الجيران العاشق الذي كان يوميًّا يقفُ أمام نافذة غرفتهما، أو «الدَّريشة» بالعامّيّة، ليقولَ

بأنّه سيتزوّجهما معًا كما هو شأنُ أبيه، وسيسكنهما في الطابق العلوي من بيته الكبير، فتتسلّيانَ به بخبث بأنّهما لا تمانعان ذلك، ولكنّهما لنْ تتمكّنا من انتظاره في حال تأخّره أكثر من ذلك، لأنَّ العرسان كُثر. كانتْ تتحدَّثُ ضاحكةً ضحك طفلةٍ منتشيةٍ بما حدث. تابعتْ حديثها عنه من حيث نيّته الصادقة في الزواج بهما. أمّا هما، فلا شيءَ أبعدَ من التسلية بفتًى لمْ يكنْ وسيمًا، ولكنّه كان بمثابة محطّة تسلية من نوع مختلف. قالتْ لي أمّي بأنّها وخالتي كانتا تراقبانه من نافذة الغرفة المجاورة التي تطلُّ على الزُّقاق من جهة اليسار، حيث يستغلُّ قلّة مرور المارّة بهذا الزقاق بعد وقت صلاة المغرب، ليأمرَ أحد أصدقائه بالوقوف هناك مراقبًا. أمّا هو، فيتقدَّمُ باتّجاه نافذة غرفتهما، ويرمي رسالته الملفوفة حول حصاة صغيرة. تذكّرتْ أمّي أنّها كانتْ تقولُ لخالتي بأنّها تخافُ أنْ يتهوَّرَ ذلك الشابّ ويأتيهما خاطبًا، أو أنْ يكتشفَ والداهما أمرهما معه وتلقيان ما لنْ يسرّهما، لا سيّما وأنّ الشابّ ما فتئ عن الحديث عن عمليّة جمعه لمهرهما معًا، روبيّةً روبيّة. لكن خالتي كانتْ تطمئنها بأنّها ستجدُ حلًّا للقصّة كلّها، وهو ما خلّصهما منه فعلاً. إذ قالتا له بأنَّ صبرهما نفد، وأنَّ الكثير من العرسان الوسيمين والأغنياء قد تقدّموا إليهما، وهما لنْ تتمكّنا من رفضهم كلّهم انتظارًا له وحده. على أنّهما ستساعدانه بتدبير بقيّة المهر، وهو الأمر الذي لمْ يقبله في البداية، لكنّه عاد

للقبول به حتى لا يخسرهما معًا!

أحسستُ بأشياء حارّة تتدفّقُ حممًا في داخلي. ليستْ غيرةً وحسب. إنّه حنقٌ أيضًا. تغاضتْ أمّي عن ذلك بضحكةٍ خبيثة لتتابع بأنّها في الليلة التي وعدتاه بتسليمه المهر، ألقتْ هي له بكيسٍ من نافذتهما. أمسكه وهَمَّ بالانصراف، لولا أنْ استوقفتاه ليحسبَ أمامهما واتّكاءً على جدار بيتهما المهر. لمْ يُمانع، فجلسَ ليكونَ تحت قدرتهما على الفعل. قبل أنْ يكتشفَ أنَّ في الكيس مجموعاتٍ متفرّقة من الكرات الزجاجيّة الملوّنة التي تسمّى «التِّيَل»، أهالا مقدار كيس كبير من التراب على رأسه. فرَّ شاتمًا ومُتوعِّدًا ومشفوعًا بسخريّتهما منه ومن صديقه الذي تكفَّلَ بذلك لاحقًا. كانتْ أمّي تضحكُ بشدّة كأنّها ترى ذلك الآن. على أنّها التفتتْ لتصحِّحَ لي، أو لتعتذر بأنّها كانتْ مجرّد تسلية أو درسًا لنْ يُنسى لذلك الشابّ.

ربّما كنتُ لأستمتعَ بكلّ تلك الأحاديث لو أنّها جاءتْ في سياقٍ مختلفٍ غير ذاك الذي وُضِعْتُ فيه. لمْ أستطعْ أنْ أبدو عاديًّا أنا المُمْطَر بأسئلةٍ لا تُحَدّ. هل جاءتْ بي أمّي إلى هنا لتحدِّثني عن طفولتها مع خالتي؟! للحديث عن خالتي المغنّية المشاكسة «الغشّاشة»؟! لتُريني تلك الصورة التي لا تعني لي الشيءَ الكثير؟! ماذا بعد؟ أنْ أعرفَ قصّة ذلك الشابّ الأحمق الذي أرادَ الزواج بهما معًا؟! أنْ أسمع تلك الأغنية الشعبيّة

«حمامة نودي نودي»؟! حقًّا كنتُ أسمعُ أغاني أخرى، لكنّها ليستْ شعبيّةً. إنّها أغانٍ همجيّة ومتعجرفة. بدتْ ملامحي متقلّصة. صحيحٌ أنّي سعيدٌ في سرّي لأنّي رأيتُ أمّي بذلك الصفاء الذي أحبُّ أنْ أراها فيه، لكنَّ الهواجسَ أقوى من ذلك بكثير. ربّما أحسّتْ بأنّها بالغتْ في الحديث عن «تلك الأيّام» التي تنهّدتْ وقالتْ عنها بأنّها «أيّام البراءة»، لأنّها عدّلتْ من جلستها، وغيّرتْ نبرتها، قبل أنْ تقول بشيءٍ من الجدِّيّة بأنّها طلبتْ أنْ يدورَ الحديث بيننا في غرفتها لأنّها أرادتْ أخذ كلَّ حرّيّتها في الحديث. قالتْ لي بصوتٍ رَقَّ كثيرًا بأنّها لا تشعرُ بالغيرة أو بالكره أو بالحسد من خالتي. لكنّها، لطالما أحسَّتْ في داخلها بحاجز يجعلها تتصرَّفُ بكلّ تلك التصرّفات. انتبهتُ بكلّ حواسّي إليها وهي تتحدَّثُ رافعةً يدها بإيماءاتٍ متوافقةٍ مع ما تودُّ قوله. أسندتْ رأسها إلى الحائط وتابعتْ شرح ما أحسَّتْ به غالبًا. أخبرتني أنّها دائمًا ما عانتْ وجاهدتْ وكافحتْ لتحصلَ على ما تريد، بينما حصلت خالتي على كلّ ما أرادته وربّما أكثر من دون كبير عناء.

ابتدأتْ أمّي الحديث منذ فترة ما بعد المراهقة حينما تمّتْ معاملتها على نحوٍ أكثر حسمًا من قبل والديْها بوصفها البنت الكبيرة، بينما أختها الصغرى وآخر العنقود بكلّ ما لذلك من دلالة في الدلال. فعلى الرّغم من فارق العاميْن، إلّا أنّهما

أشبها قرنيْن من زمن انتظاراتها لكلّ الأشياء الجميلة التي حلمتْ بالحصول عليها من والديْها، لتصفعها الخيبات المتتالية. «أنتِ كبيرةٌ الآن. لستِ كأختكِ». أخبرتني بأنّها الجملة التي كانتْ تنسفُ كلَّ طلباتها التي لمْ تكن كثيرةً ولا صعبةً، على أنَّ نظرة جدّيَّ ـ رحمهما الله ـ لها مختلفة. «على البنت الكبيرة أنْ تبقى في انتظار زوجها فقط. حتى وهي تتعلّم. تعلّم البنت لا فائدة منه إنْ لمْ يكنْ سببًا في زواجها أحسن زواج»، هكذا ردَّ عليها جدّي ـ رحمه الله ـ حينما أخبرته بأنّها تودُّ الالتحاق بالجامعة. الردُّ كان مهذّبًا ولطيفًا، مقارنةً بما جرى عليها وما واجهته من معارك شديدة، حينما أصرَّتْ على الالتحاق بجامعة بغداد لتدرس الطبّ بعدما كانتْ من الأوائل على مستوى الدولة في ذلك الوقت.

توقّفتْ أمّي عن الحديث لتأخذ نفسًا عميقًا. ما زلتُ لا أعلمُ حينها ما علاقة كلّ ذلك بما ودّتْ قوله لي، لكنّي أدركتُ بأنَّ ذلك الوقت سيفهمني ما عجزتُ عن فهمه طيلة تلك السنين الماضية. نظرتْ إليَّ أمّي محاولةً قراءة ما يجولُ في خاطري حينها. لستُ أدري إنْ أفلحتْ في ذلك أم لا. هي لمْ تقلْ. فقط أجالتْ بصرها عنّي نحو السماء متنهّدةً كأنّما لتتحرّرَ من عبءٍ ثقيل. تابعت الحديث عن موقف والديْها الصارم بعدم ذهابها إلى العراق للدراسة. كانتْ جدّتي لا تستطيعُ أنْ تدركَ معنى أنْ تسافر فتاةٌ إلى خارج البلاد، لا لشيءٍ سوى الدراسة.

صحيحٌ أنّها شجّعتْ أمّي على حصد أعلى الدرجات طيلة مدّة الدراسة، وكذلك فرحتْ أشدَّ الفرح لدى علمها بأنَّ ابنتها تفوّقتْ إلى الحدِّ الذي جعلها من الأوائل على مستوى البحرين. إلّا أنَّ ذلك لا يعني أنْ يصل الأمرُ إلى حدِّ السفر إلى الخارج، ولو إلى العراق القريب. لجدّي أسبابُه الأخرى. كيف له أنْ يسمح لابنته بالسفر؟ هذا منافٍ للأعراف وللتقاليد. فضلاً عن ذلك: مَنْ يحميها هناك من تحرّشات الشباب؟ على أنَّ أمّي كانتْ مُصرَّةً أشدَّ الإصرار على عدم تضييع الفرصة. قالتْ لي إنّها عمدتْ إلى الحديث مع ابنة أحد التجّار الذين يوقّرهم جدّي. لمْ تكنْ علاقتها بها قويّةً، لكنّها كانتْ اجتماعيّةً وعلى أهبّة الاستعداد لمدِّ يد العون. أخبرتها أمّي بالقصّة، وهي تكفّلتْ بنقل الرسالة إلى أبيها الذي حضرَ بعد يوميْن، برفقة أحد القلّة من الشيوخ الذين وافقوا على فكرة سفر الفتيات إلى الخارج. كان جدّي ـ رحمه الله ـ صارمًا جدًّا. لمْ يقتنعْ بسهولة. ربّما لمْ يقتنعْ أصلاً. على أنّه أعطى كلمةً للرجليْن. هذه الكلمة هي التي جعلتها تسافر. أحسَّتْ أمّي بالمهانة يومها. تمنّتْ في سرّها لو لمْ يكن لها الحقُّ في البعثة. إذن لما فكّرتْ فيها ولما أحسَّتْ بأنّها من حقّها. قالتْ لي بأنّه مهما كانتْ أسبابُ جدّيَّ، فإنّها لا تستطيع تجاهل الأيّام الصعبة التي أحسَّتْ أنَّ نجاحها ذاك قد انقلبَ عليها حزنًا وسببًا لحربٍ غير معلنة. أمّا خالتي، فقد اكتفتْ بشهادة

الثانويّة العامّة بمعدّل جيّد جدًّا، على أنّها لقيتْ كلّ الاحترام من جدّيَّ ـ رحمهما الله ـ لأنّها لمْ تفكّرْ مجرّد التفكير في السفر خارجًا للدراسة.

توقّفتْ أمّي قليلاً عن الحديث. عرفتُ أنّها كانتْ تغرقُ في انثيال الصور عليها. سألتها أنْ تتابع حديثها لأنتشلها من مستنقع الذاكرة ذاك. تأخّرَ ردّها. ربّما لمْ تسمعني. تنهّدتْ. أعدتُ السؤال. التفتتْ إليَّ. لمْ يبدُ أنّها سمعتني، لكنّها حدَّقتْ فيَّ قليلاً بنظراتٍ لمْ أفهمها. صمتٌ. لمْ يطلْ صمتُها. قالتْ لي بأنّها لا تعرفُ من أين تبدأ حقًّا. شعرتُ بأنَّ أشياء كثيرة تزدحمُ في داخلها ولا تعرفُ كيف تخرجها. ربّما لأنّها منذ زمنٍ طويلٍ لمْ تبحْ، أو لأنّها تقولُ ذلك للمرّة الأولى. «أمّكم هذه بئر أسرار»، كانتْ علياء دائمًا ما تقولُ، تعليقًا على صمت أمّي الغالب. في تلك اللحظات فقط أحسستُ بذلك. لا تملكُ أمّي الكثير من الصديقات الحميمات. أغلبهنَّ زميلات عمل أو علاقة صداقة عاديّة. أمّا علاقتها بخالتي فهي أكثر من العاديّة وأقلَّ ممّا ينبغي لها أنْ تكون. حتى لو كانتْ حميمةً، فإنّها لنْ تتمكّن من البوح لها بتلك الأشياء. كان والدي ـ رحمه الله ـ الشخص الأقرب لها، ومنذ وفاته أصبحتْ أكثر وحدةً. علياءُ مقرّبةٌ منها جدًّا، لكنّي لا أظنُّ أنَّ حديثًا كهذا سيجري بينهما. ربّما لأنَّ أمّي تعلمُ مزاج ابنتها العصبي. هي تشبهها في أشياء كثيرة. لا أحدَ يشبهها مثلما تشبهها هي.

لوّحتْ أمّي في وجهي. في تلك المرّة، أنا مَنْ شردتُ. سألتني إنْ كنتُ وصلتُ للمرّيخ أم لا. حاولتُ الابتسام. سألتني إنْ كنتُ قد انزعجتُ من حديثها. هززتُ رأسي فيما يشبه الاعتذار. لمْ أشأ الإفصاح عمّا فكّرتُ به، ولم تسألني عنه. «لسببٍ ما لطالما اعتقدتُ أنّه سيأتي يومٌ يظهرُ فيه الفارق بيننا.. الفارق الحقيقي»، قالتْ أمّي معترفةً بطريقةٍ غير مألوفة. تسمّرتُ. تابعتْ حديثها بسكون كأنّما امتصّتْ نبراتها المنفعلة في لحظات صمتها تلك. قالتْ إنّها بعد معركتها الأكثر شراسةً مع أهلها في سبيل الزواج بأبي، تمنّتْ ذلك بشكلٍ أعمق. يومها، لمْ تكنْ أمّي تودُّ سوى الارتباط بشابٍّ ألْفَتْه من عالمها، وبذات ميولها، وبطريقة تفكيرها، وألِفَتْه طيلة سنوات الدراسة في جامعة بغداد. تحاشتْ ذكر أنّها أحبّته. ربّما خجلاً. كان رفضُ جدّيَّ لذلك الشابّ الذي أصبحَ أبي فقط لأنّه من قرية، وليس ابن المنامة المدينة والعاصمة. في تلك الأيّام، كانتْ الفروقات متجلّيةً بشكلٍ أوضح، وهو ما جعل الرفض يبدو مبرَّرًا حينها. لمْ يشفع لأبي حينها أنّه شابٌّ ناجحٌ في دراسته حيث تخرَّجَ في جامعة بغداد طبيبًا عامًّا، ولا كونه من عائلة حسنة السمعة، ولا تديُّنه وأخلاقه، ولا وسامته. «من السنابس؟» كان جدّي ـ رحمه الله ـ يقولُ لها بنوعٍ من التعالي. هزَّ رأسه مرارًا يومها كأنّما لينخلَ مجموعة أفكارٍ راودته يومها قبل أنْ يُخبرها بأنَّ الآلاف من

شباب (المنامة) يتمنّونها. حدَّثتني أنَّ جدّتي أدمنتْ سؤالها في تلك الأيّام عن كلّ شيءٍ حدث في بغداد. ربّما من حقّها، لكن ما لمْ يكن من حقّها بحسب وجهة نظر أمّي هو التشكيك فيها. أسوأ ما حدث هو حين منعها أبوها من الذهاب إلى المستشفى خشية أنْ تلتقي بأبي هناك. ردَّدَ جدّي عليها مرارًا بأنّه لنْ يسمح بزواجها من ذلك القرويّ، ولنْ يسمح لها بالهرب معه. حاولَ مرارًا أنْ يُثنيها عن قرارها من خلال الضغط عليها عبر عملها. علتْ نبرة التهديد والوعيد. ازداد منسوب الشكّ فيها. عذّبها ذلك في أعماقها. لمْ تجدْ أحدًا تلجأ إليه. أخبرتني أمّي بأنَّ خالها ـ رحمه الله ـ اختلفَ مع أبي بسبب رفض جدّي مشاركته له في محلٍّ بيع الملابس الذي دَرَّ أرباحًا معقولةً عليه في تلك الأيّام. لهذا ما عاد ممكنًا حينها اللجوء إليه، لا سيّما أنَّ هذا الخال الوحيد قد اتّخذ موقفًا نهائيًا لأنّه شعرَ بأنَّ ذلك الرفض إهانةٌ كبرى له، وعدم رغبة في أنْ يحصدَ خيرًا من خلال تلك الشراكة التي يبدو أنّه بنى آمالاً كبيرةً عليها.

توقّفتْ أمّي قبل أنْ تكمل حديثها عن إحساسها بأنَّ العالم كلّه كان يخنقها بيده الغليظة. لكنّها آمنتْ حتى اللحظة الأخيرة بأنّها لمْ تُرِدْ شيئًا مثلما أرادتْ أنْ تحيا مع أبي. ارتفع صدرها قبل أنْ يهبط بإيقاع هادئ. توقّفتْ عن الكلام. ربّما اغرورقتْ عيناها. أقولُ ربّما لأنّي همتُ في تذكّر ملامح أبي ـ رحمه الله

ـ أو لأنّ وجهه قد أطلَّ بضحكته حينما كان يصطحبُ أمّي في مثل تلك الليلة إلى حفل عشاء خارجي. رأيتُها ترخي يدها عندما كانتْ أعلى من مستوى كتفها. زنّرتني أسئلةٌ شتّى حول ما حدث. قلتُ لها بأنّي أنتظرُ التتمّة. قالتْ بأنّها لا تعلمُ إنْ كان يجدرُ بها الحديث عن تلك الأيّام في ذلك الوقت أم لا، على أنّها تحسُّ بحاجةٍ ملحّة في داخلها للحديث. قالتْ بأنّها منذ مدّة طويلةٍ لمْ تطلقْ لنفسها العنان في الحديث. لا تتذكّر حتى متى. وحده الإحساس بالارتياح يجعلها تتابع الحديث! لمْ أعلِّقْ. عرفتُ أنّها تعطي لنفسها مبرِّرًا للاستمرار في البوح، فالحديث بهذا المعنى ليس موجَّهًا لي. تابعتْ الحديث عن الشهريْن العصيبيْن اللذيْن زحفا عليها بأقدام الأيّام العدوانيّة حينما استمرَّ المنع من الذهاب إلى المستشفى من جهة، وازدادت الضغوطات واستعرّتْ نيرانُ الحرب الكلاميّة عليها من جهةٍ أخرى. حدّثتني أنّها لمْ تفكِّرْ يومًا بالهرب مع أبي. لمْ يكن لائقًا بها ولا بأبي التفكير على هذا النحو، إلّا أنّها شعرتْ بأنَّ بيتها الكبير في «فريج المخارقة»، في المنامة، قد أضحى سجنًا كبيرًا بلا نوافذ وبلا أبواب. لا شيءَ فيه سوى قضبانٍ وحيطان رماديّة قاتمة. لمْ أملك الوقت حينها للحديث أو حتى لترف التفكير بشيءٍ آخر غير الذي كنتُ أسمعه. أصرَّتْ على أنْ تُخبرني بأنّها لمْ تُبالغ عندما وَصَفتْ بيتها «بالسجن»، لأنّها حُبِسَتْ في الشهر الأخير في غرفتها، وكان

يأتيها الطعام مختلفًا عن ذلك الطعام المُعَدِّ. كان أشبه بطعام المحبوسين: العدس، واللوبياء، والحمّص، والباقلاء، والجبن في أحسن الأحوال، رفقة قرص من الخبز البائت عادةً. مرّةً أخرى لَمْ يأتِ الفرجُ من تلقاء نفس جدّيَّ ـ رحمهما الله ـ وإنّما رغمًا عنهما في أعقاب ذيوع صيت الخبر وانتشار الشائعات المحبّبة في مثل تلك القصص بوساطة أحاديث النسوة اللاتي لمْ توفِّرْ مخيّلاتهنَّ قصصًا متخيّلة لما جرى ويجري في تلك الأوقات في «بيت الدكتورة»، كما باتَ يُعرفْ. كادتْ الشائعات أنْ لا تقفَ عند حدّ بما يُهدِّدُ سمعة تلك الشابّة المحبوسة في غرفتها وأهلها الذين يُطعمونها المزيد من التهديدات. على أنّ جدّتي قرّرتْ حسم الأمر بطريقتها الخاصّة حينما دخلتْ مواجهةً شرسةً مع جدّي دون أنْ تُخبرَ أمّي. قالتْ أمّي إنَّ أمّها لا تلجأ إلى مثل ذلك الخيار، إلّا عندما تشعرُ أنْ لا خيارَ آخر محتمل. من عادتها المُساكنة والمُهادنة. لكن في أوقات الخطر، تنقلبُ إلى نسرٍ لا يرضى إلّا باقتناص هدفه.

توقفتْ أمّي عن السرد. كأنَّ شيئًا ما جرحها بغتةً. وضعتْ يدها على رقبتها تتحسّسُها. قالتْ بصوتٍ يستوطنه شيءٌ عميقٌ بدا أنّه استيقظ في تلك اللحظات منذ زمنٍ بعيد، إنّها لا تعرفُ لمَ وصلتْ الأمور إلى ذلك الحدّ، ولا تعرفُ لمَ بعد أنْ تمّت الموافقة أخيرًا، بقيتْ النظرةُ هي ذاتها من حيث إنّها العاصية

المتمرّدة، في حين كان كلّ اهتمامها منصبًّا على نيلها لحقّها في السعادة. تكونُ تكذبُ لو أنّها قالتْ، في أيّة لحظةٍ من لحظات عمرها، لو قالتْ إنّها تلوّنتْ بالفرحة في تلك الأيّام. ربّما بعد عام من ذلك تقريبًا، حين انفرجتْ علاقة جدّيَّ بأبي الذي اضطرَّ إلى عدم زيارتها كثيرًا في البيت الذي لمْ يرَ فيه غيرها تبتسمُ له. كأنَّ ثمّة رهانًا آخر بدفعه عبر تلك المعاملة الجافّة من قبل جدّيَّ إلى إحداث شيءٍ آخر، أو ربّما لأنّهما ما زالا حتى ذلك الحين، غير مقتنعيْن به.

«ليس حقدًا ولا غيرةً بأيِّ شكل، لكنّي تمنّيتُ أنْ تلقى أختي نصيبَها الذي يليقُ بها دون زيادةٍ أو نقصان. كانتْ هذه هي العدالة من وجهة نظري»، قالتْ قاطعةً حديثها الأوّل، منتقلةً نحو ضفّةٍ أخرى من الحديث. علَّقتُ أسئلتي أمامها. رفعتُها كمصابيحَ في نفقٍ مظلم. أطفأتها بمتابعة الحديث عن توصيفها لتلك الحالة الغريبة التي اعترتها جرّاء ذلك. أختها البسيطة التي اكتفتْ بالتعليم الثانوي وبالأحلام العاديّة، تحصّلتْ على أكثر ممّا كانتْ تستحقّه مقارنةً بها. خَلُصْتُ إلى ذلك مُعَمَّدًا بأسئلةٍ بلا ملامح. هممتُ بالتعليق. لا أعلمُ بما كنتُ سأعلِّقُ، لولا أنّها أومأتْ لي بكفّها. صمتُّ لأسمعها تحدِّثُني عن قصّة تقدّم زوج خالتي لخالتي: الأستاذ ابن العائلة المعروفة وصاحب السمعة الطيّبة. توقّفتْ لتؤكِّدَ مجدّدًا على أنّها لمْ تحسَّ بالغيرة من خالتي، لكنّها لمْ تستطعْ التصالح مع

كلّ هذا (الحظّ) على حدِّ تعبيرها. لا سيّما أنَّ كلَّ ذلك اقترنَ دائمًا بموافقة والديْها ورضاهما التامّ. ليس هذا وحسب، وإنّما بنمط من أنماط النكاية بها حين الاحتفال بتلك المناسبة. صمتتْ مدّةً. همَّتْ بقول أشياء إضافيّة لكنّها لمْ تقلها. تحرّكتْ بها شفتاها في الهواء. ربّما حاولتْ إعادة ترتيب الكلام. كنتُ أستمعُ بانتباه. بغتةً حَلَّ وجه أبي محلَّ وجه أمّي. صارَ أبي أمامي. قالَ لي يومًا ذات تجلٍّ: «فقط آمنْ بكَ وبمَنْ يُحبّك. إنْ تراهنْ على ذلك، وحده، تربحْ!». في تلك الآونة فقط أدركتُ ذلك ربّما.

«أحمد! لا أعلمُ ماذا أقول! لا أعلمُ ماذا يجري لي! خالتك اليوم..»، قالتْ بنبرةٍ أقرب إلى الرثاء استرعتْ حواسّي كلّها مجدّدًا. جمعتها في مجرى واحد وسألتها أنْ تواصل الحديث من دون أيّ تفكير. التفكيرُ معطِّلٌ للحديث؟ أنا لا أعرفُ إنْ كان ذلك صحيحًا أم لا. ما أعرفه هو أنّني وددتُ قولَ أيِّ شيءٍ، فقط لتواصل حديثها أو بوحها بمعنًى أكثر دقّة. تطلّعتْ إلى سقف صورة والدي المعلّقة أمام المزآة. لمْ تعلِّقْ. بقيتْ عيناها هناك تستنطقان، ربّما، صورًا وكلامًا منذ أمدٍ بعيد. نظرتُ باتّجاه الصورة. هناك حيث وجه أبي ـ رحمه الله ـ في رصانة ملامحه المعتادة عندما يلتقط له صورة. كان يقولُ بأنّه يحبُّ أنْ يبدو هادئًا في الصور ونادرًا ما نجحنا في التقاط صورةٍ له على خلاف ذلك.

أحسَّتْ بنظرتي تلك. عادتْ لتتابع الحديث كأنّما لتعتذر: «خالتكَ اليوم مختلفة. إنّها التي عرفتُها في هذه الصورة». قالتْ وهي تهمُّ بضمِّ الصورة مجدّدًا، ولتجعلني أنثرُ أسئلتي في جنّةٍ من التّيْه. «كيف؟»، سألتُها بلهجةٍ لمْ تبدُ أنّها كافيةٌ للتعبير عمّا اضطرمَ بداخلي. لمْ يكنْ السؤال صعبًا بالنظر إلى أنّه متوقّع بعد تلك الجملة الغريبة، على أنّه بدا غير مُفَكَّرٍ فيه أصلاً بالنسبة إليها. قالتْ إنَّها لا تعلمُ حقًّا ما جرى، لكن تلك المكالمة مختلفة. أكثر حميميّةً طبعًا، وأقلَّ توجّسًا. الأولى فهمتُها، فيما حرتُ في الأخرى. لمْ أفهمْ ممّ تتوجَّسُ أمّي من خالتي. ما فهمتُه حينها هي أنّها لسببٍ أو لآخر، تمنّتْ أنْ يتّضحَ الفارق بينها وبين خالتي بالنظر إلى الجهد المبذول والمعاناة التي واجهتها أمّي على درب السعادة المنتظرة. أمّا خالتي فقد بَدَتْ لأمّي دائمًا في صورة «المحظوظة» التي تحصدُ أكثرَ ممّا تزرع. صحيحٌ أنَّ أمّي قد نالتْ سعادتها في النهاية لكنّها تمنّتْ، كما أفصحتْ لي، لو أنَّ خالتي لمْ تنلْ ذات الأمر تمامًا وإنْ بدرجةٍ أقلّ. كانتْ أمّي تفسِّرُ الأمر بمنظار العدالة وحدها لترفعَ عنها مجدّدًا تهمة الغيرة أو الحقد. على أنّي وجدتُ الأمر من زاويةٍ مختلفة. هل كان نوعًا من الثأر من جدَّيَّ؟ لستُ أدري. لمْ أرِدْ أنْ أدري أشياء أخرى أيضًا في السياق ذاته. أردتُ أنْ أعلمَ كيف تغيّرتْ خالتي أو بصورةٍ أخرى: كيف عادت إلى ما كانته في تلك الصورة قبل سنين

بعيدة؟ لمْ تجبني أمّي. قدَّرتُ أنّها لا تملك الإجابة أصلاً. كلُّ ما تملكه هو إحساسها المتبدِّلِ حينها تجاه أختها. هل تغيّرتْ خالتي فعلاً؟ أبحرتُ في تذكّر تصرّفات خالتي. لمْ يبدُ عليها أبدًا أيُّ شعورٍ بالانزعاج من أمّي طيلة السنوات الماضية. ربّما كانتْ تشعرُ بشيءٍ ما غير طبيعي من طرف أختها الكبرى، لكنّها لمْ تتحدَّثْ حول هذا الأمر مطلقًا. حرصتْ دائمًا على إظهار أنّها لا تحسُّ بشيء وأنَّ الأمور كلّها في سياقها الطبيعي. تحليلُ أمّي يقول إنّها متعمّدةٌ ذلك لأنّها تعلمُ أنّهما ستخسران بعضهما بعضًا بمجرّد المواجهة. قالتْ أيضًا إنّها لطالما قرأتْ في عينيْها رسائل العتب الصامت، لكنّها كانتْ تصرُّ على عدم المواجهة.

«أنتَ الذي كسرتني»، قالتْ أمّي بصوتٍ خفيضٍ، لكنّه استحالَ خنجرًا في خاصرتي. صمتُّ. أبجديّاتٌ أخرى في داخلي تكلّمت. هذتْ. وربّما اشتبكتْ مع بعضها بعضًا من دون هدنة. «أنا؟!»، سألتُ متمنّيًا أنْ تكون أمّي قد أخطأتْ. عبثًا كرَّرتُ السؤال أمام صمتها الذي حلَّقَ بأنفاسي نحو مجاهلَ لا أعلمها. ربّما أحسستها بقلبي أنا الذي أدمنتُ مراوغة كلّ تلك الأحاسيس لأجل أنْ أتابع حياتي. أخبرتني أنّها شعرتْ بالانكسار حقًّا حينما بتُّ، منذ طفولتي، أكثر ميلاً وتعلّقًا بخالتي منها. كان هذا هو السبب الرئيس في كلّ ما جرى لاحقًا، لأنَّ كلّ الذي حدث كان مدفوعًا بشعورٍ جامحٍ

وأعمى. وحدها تلك الليلة قبل ثلاثة أشهر، أعادتْ الاعتبار. أو ربّما تلك الليلة أثناء المحادثة الهاتفيّة. ما قالته أمّي هو أنّها أحسَّتْ بعودة خالتي إلى سابق عهدها. في الحقيقة، ليستْ خالتي مَنْ تغيّرتْ. بل أمّي عبر إحساسها ذاك. استنتجتُ ذلك بعدما قالتْ إنّها أحسَّتْ بذلك التغيير بعد سؤال خالتي عنّي. للمرّة الأولى منذ سنواتٍ عديدة، أحسَّتْ أمّي بأنّها امتلكتني بإزاء خالتي. بأنّي في صفّها، أو تحت جناحها وفق التعبير الدارج. قالتْ لي، في ليلة المصالحة تلك، إنّها دائمًا ما كانتْ تجدُ الخيبة في نهاية كلّ حديث بينهما عنّي، لأنَّ كلّ ما تعرفه، دائمًا أقلَّ بكثير ممّا كانتْ تعرفه خالتي. كان ذلك مبعثَ حنقٍ أيضًا، وربّما إهانةً بشكلٍ ما حين كانتْ تسألها خالتي دهشةً: «أنتِ أمّه ولا تعرفين؟!». في تلك المرّة، حدثَ النقيض. بل إنَّ عتب خالتي عليَّ الذي أوصلته عبرها، أعادَ لأمّي اعتبارها الفعلي. أحسَّتْ بأنَّ الحديث كان يمرُّ عبرها، وأنّها ليستْ مُتجاوَزَة كما أحسَّتْ دائمًا من قبل. سألتُها إنْ كانتْ قد أخبرتها بعذري. طمأنتني بإيماءةٍ سريعة، بَيْدَ أنّي لمْ أطمئنّ. العمل والتحضير لمعرضي هما العذرُ أو الحجّة.

في الحقيقة، لمْ أكنْ كاذبًا. فقبل ثلاثة شهور كنتُ أعتزمُ المشاركة في معرض، على أنّي لمْ أرغب في المشاركة فيه وأنا ما زلتُ غير مُلِمٍّ بوصفة المِداد السحريّة التي أردتُ إتقان تحضيرها. لكن، ما ليس حقيقةً هو عدم كون ذلك السبب

الحقيقي. كان الغطاء فقط للتحرّر والتملّص من كلّ دعوات الزيارة إلى بيت خالتي. ليس هذا وحسب. كنتُ أتظاهرُ بالانشغال حين تتصلُ بي خالتي ليتناقصَ هذا النوع من التواصل أيضًا، وصولاً إلى حدوده شبه المعدومة. هل أثارَ ذلك عتبَ خالتي عليَّ؟ طبعًا لمْ أكنْ منتظرًا غيرِ ذلك، على أنّي لمْ أكنْ أجرؤ على المواجهة.

ثمّة شيءٌ ما في داخلي تغيّر تجاه خالتي، بعد ليلة المصالحة مع أمّي. أحسستُ بنوعٍ من الحاجز النفسي تجاهها، أو بهوّةٍ ما تخيفني مجرّد فكرة الاقتراب منها، وربّما أيضًا بنوعٍ من الشعور بالذنب كلّما فكّرتُ في الحديث معها. كلّما فكّرتُ في خالتي، ظهرتْ لي أمّي بوجهٍ ذابلٍ، فأتذكّرُ حالها في تلك الليلة حين انهارتْ في بكاءٍ مرير. وددتُ في سرّي لو أنّي كسبتهما معًا. لكنّي أردتُ الخروج من تلك الدائرة عبر ضمان عدم فعل أيِّ شيءٍ يمكن له أنْ يثير حفيظة أمّي، أو يعودَ بي خطوةً قبل خطّ مصالحتنا.

حين حدّثتني خالتي عبر الهاتف بعد ليلة المصالحة تلك بيوميْن، شعرتُ لأوّل مرّةٍ بالرغبة في إنهاء تلك المكالمة في أسرع وقت متاح. كأنَّ الوقتَ مزنَّرٌ بكلِّ أغلال الدنيا حينها. ربّما بدوتُ جافًّا كذلك. إجاباتي مقتضبة حدَّ أنّها بالكاد خرجتْ من شفتيَّ كأنّها من أزمانٍ سحيقة. لستُ أدري. كانتْ

تسألني عمّا بي، ولمْ أعرفْ بأيّة لغةٍ يمكنُ لي أنْ أُفهمها بأنَّ أشياء في داخلي نحوها تتغيّر على نحوٍ لمْ أردْه، على أنّها تحدثُ وتتفاعلُ وتتعاظمُ دون قدرةٍ منّي على منعها أو تهذيبها ولا حتى مقاومتها. لمْ أرجِّحْ احتمال أنْ تكون أمّي قد أخبرتْ خالتي بما جرى. لا يمكنها فعلُ ذلك، حتى في أشدِّ حالات فرحها. لكنّي أرجِّحُ أنْ تكون قد أحسَّتْ بذلك التغيّر وجعلتني أسيرُ فيه من دون مواجهةٍ كعادتها. الرسالة التي حمَّلتها خالتي لأمّي لي عاتبةٌ فقط. العتابُ بتلك الطريقة ليست مواجهة. المواجهة حين تعاتبني مباشرةً، وهذا ما يبدو أنّها تحاشته. هل قدَّرتْ أنَّ أيّة مواجهةٍ معي ستنتهي بالخسارة، مثلما كان الحال مع أمّي؟

هذا ليس مهمًّا. المهمُّ أنّي ألفيتُ نفسي في وضعٍ غريب، إذ تغيّرتْ تمامًا لهجة أمّي عند حديثها عن خالتي، كما تغيَّرَ إحساسي أنا حين سمعتُ باسم خالتي وبحديثها. حين أقولُ إنّه تغيّر، فهذا لا يعني أنّه اختلفَ تمامًا. صحيحٌ أنّه اختلفَ بدرجةٍ كبيرة، لكن... لستُ أدري كيف أوصِّفُ الأمر! ثمّة أحاسيسُ امتزجتْ من دون تجانس. اشتبكتْ مع بعضها بعضًا. تبارزتْ في معركةٍ لمْ أرَ لها أفقًا ولمْ أستطعْ حسمها. تذكّرتُ وجه خالتي، ضحكتها، بيتها، طَبَق (الباستا)، قطع الفطر، مشروع محلّ الخياطة، أحاديثها. وددتُ لو أنّي كنتُ هناك حيث هي في بيتها، جالسًا إلى طاولة الطعام رفقة زوجها

وابنتها، أستمعُ إلى تلك الأحاديث التي لا تهمّني أغلبها، لكنّي آنسُ بها فقط لأنّها تبقيني قريبًا من دفء خالتي.

«ما بك؟»، قالتْ أمّي ملوِّحةً بيدها على شكلٍ نصف دائري. «لا شيء»، قلتُ مستعيدًا صورة أمّي من الواقع لأراها في واقعٍ آخر ترمقني بنظراتٍ تشعرني أنّها تبعدني عنها وهو ما لمْ أردْه. تخيّلتُ أنّي في منتصف المسافة بين أمّي وخالتي حيث اتّخذتْ كلٌّ واحدةٍ منهما طرفًا في قبالة الأخرى. كلّما خطوتُ خطوةً باتّجاه إحداهما، ابتعدتُ بالمقدار ذاته عن الأخرى. هذا هو القانون. خطوتُ باتّجاه أمّي خطواتٍ عديدة. كنتُ أغضُّ الطرفَ عن رؤية خالتي. ربّما نادتني حينها. ربّما صرختْ بي. لمْ أكنْ أسمعُ سوى هواجسي من فقدان أمّي التي خسرتها طيلة سنواتٍ مديدة. حين وصلتُ إلى أمّي، لمْ أحسَّ بالراحة تمامًا. كانتْ المسافة بيني وبين خالتي أبعدَ ممّا تصوّرت. العودة شبه مستحيلة في تلك اللحظة. في أغلب الأحيان، لمْ أرغبْ في تلك العودة. لكن في أحيانٍ أخرى، على قلّتها، ثمّة ما ينسفُ كلَّ شيءٍ ويجعلني هناك فوق جبلٍ من أحاسيسَ متناقضة. أغمضتُ عينيَّ. قلتُ لنفسي بأنّي لا أراها ولا أرى تلك المسافة الشاسعة التي أضحتْ بيننا.

حاولتُ مَدَّ يدي لأضعها في يد أمّي. هكذا سأشعرُ نفسي بأنّي ظفرتُ ولمْ أخسرْ. على أنّي كنتُ أراها بأعينٍ أخرى لا

تريني الصورة وحدها، وإنّما تكبِّرُها رفقةَ أشياء عديدة تُهندِسُ في قلبي ما وددتُ طمره في مجاهل روحي. يدي التي مَدَدتُها أمسكتْ بيد أمّي، وتشبَّثتْ بها، على أنّي لمْ أطمئنَّ إلى أنَّ ذلك سيقيني من السقوط في ما لا أعلمه من أفكارٍ تحترفُ حروفَ الحيرة وإعرابها.

«ما بك؟»، أنقذتني أمّي من تخيّل فكرةٍ أخرى مجنونة. حاولتُ الإجابة كما أجبتُ سابقًا. تلعثمتُ. تذكّرتُ أنّي في مثل تلك المواقف أجيدُ الهروب. قلتُ لها بأنّي سأتصرَّفُ حيال الأمر وإنْ كنتُ لا أعرفُ كيف بعدُ. نظرتْ إليَّ نظراتها التي تحاولُ من خلالها قراءة ما أفكّرُ به. لمْ تعلِّقْ. أشحتُ عينيَّ عنها. أحسستُ أنّها تتبعُني. جفَّ ريقي. حاولتُ ابتلاعه. ابتلعته. ما زالت العينانِ تخترقانِ قلبي. لستُ أدري إنْ قرأتْ أنْ لا شيءَ في تلك العينيْن ولا في ذلك الرأس المتصدِّع الذي أملكه. لا شيءَ سوى رغبةٍ في محو كلّ ذلك الحديث الذي حدَّثتني به مزهوَّةً رغم كلِّ شيءٍ بموقعٍ لطالما تمنّته، ولمْ أحسبْ له يومًا حسابًا. في قلبي كلّ شيء. لحسن الحظّ أنّها لمْ ترَ قلبي في تلك اللحظة. أنا الذي رأيته لمْ أستطعْ التقاط أيِّ شيء، ولا فهم أيِّ شيء. لمْ أدرِ ما قالته لي بعد ذلك. لا لشيءٍ سوى أنّي لمْ أكنْ هناك، حيثَ هي. كنتُ قد حسمتُ قراري رغم كلّ شيء. ما دمتُ غير مطمئنٍّ إلى ردّة فعل أمّي، فلنْ أقابل خالتي بكلّ ذلك الودّ. لا بأسَ في مزيدٍ

من الوقت والهروب. لا بأسَ في اختلاق أعذارٍ أخرى. لا بأسَ في أن تشعرَ خالتي بالسبب الحقيقي، من دون مواجهة. المهمُّ فقط أنْ لا أخسرَ تلك التي كانتْ تتحدَّثُ بلسانٍ جرّحه الحنينُ إلى أختٍ لطالما أحسَّتْ بأنّها سرقتْ منها ابنها الوحيد، الذي أحسَّ نفسه في تلك اللحظات حرفًا غير موزونٍ بحبرٍ رديء!

كان كلّ شيءٍ ليكون، لولا ذلك اليوم.

كان كلّ شيء حاضرًا ملء الروح وملء كلّ الأشياء التي تصنعني وتجعلني أقربَ من أيّ شيءٍ آخر إلى نفسي وأنفاسي. كلّ شيء. هكذا بالتعميم المحض. كنتُ أمدُّ يدي لأقطفَ من أيّامي أحلامي التي أوشكتْ على التجلّي، لولا ذلك اليوم الذي لمْ أعلمْ فيه ولا في وقتٍ بعده كيف يأتي حدثٌ ما ليقلبَ كلّ التصوّرات وكلّ المفاهيم وكلّ شيء لمجرّد حدوثه. ما الحدث أصلاً؟ أهو ما يقعُ واقعًا وعيانًا، أم ما يقعُ في ذواتنا؟ أهوَ ذاك الذي نسمعُ به أو نراه في الحياة الواقعيّة، أم هو ذاك الذي يتكوَّنُ في نبضاتنا ويجعلُ لنا أعينًا جديدةً وقلبًا ينبضُ نبضًا جديدًا؟

فلسفة؟ لستُ فيلسوفًا البتّة، ولستُ أملك الأدوات لأكون كذلك. ربّما وددتُ في تلك اللحظات أنْ أكونَ شاعرًا أو روائيًّا لأحاول التعبير بشكل أفضل. كنتُ أمام البحر الذي امتدَّ بلا انتهاء كجنّةٍ من المداد. كمْ تمنّيتُ لو كان كلّ ذلك البحرُ مدادًا لما اعتمل بنفسي. لكنّي لستُ سوى خطّاطٍ يُعالجُ الكلامَ بصورةٍ أخرى للكلام. ربّما تكونُ أكثر جمالاً أو تَجْلِيةً، لكنّها في النهاية ليستْ سوى استنساخٍ لذات الكلام. صحيحٌ أنّه ربّما يتوسَّلُ الخطّاط الفنَّ للتعبير بصورةٍ أرقى عن مضمون ذلك الكلام المخطوط، على أنَّ ذلك كلّه لمْ أُعنَ به. المهمّ لديَّ أنّي شعرتُ بقلّة الحيلة. أحسستُ بفائضٍ من الكلام تتلاطمُ أمواجه بداخلي، قبل أنْ أرى أمواج البحر تلك تلطمُ قدميَّ اللتيْن كانتا تتقدّمان فيه حافيتيْن من الوقت. كنتُ أخسرُ دائمًا في التعبير عمّا أودُّ قوله بأكثر من أربع كلمات، فما الذي بوسعي قوله بكلماتٍ لمْ أحسَّ أنّها الكلمات ذاتها لأنجحَ في عدّها وصقلها، أنا الذي دأبتُ على صقل قصبي وأحباري؟

الذين قالوا إنَّ الأوقات الجميلة تمرُّ مرَّ السحاب لمْ يخطئوا. أربعة أشهر مرَّتْ أسرع من تحيّة غيمةٍ عابرة. لو قيلَ لي أنْ أصفها في كلمة، لما عدوتُ توصيفها بالجنّة. نعم، «الجنّة». لستُ أبالغُ ولستُ أحسُّ بأنّي أعيدُ إنتاجَ التوصيف استعادةً شفّافةً لما حدث، كما يحدثُ مع الكثيرين حين

يعمدون إلى ماضيهم بحساسيّة هشّة فيضخّمونه ويُكبّرون زواياه ليعوِّضوا عن مرارة واقعهم لاحقًا، أو وفق منطق رومانسي شفيف لا يشفُّ سوى عن روحٍ ربّما تائهة. أقولُ إنّها أربعة أشهرٍ، وأحاولُ أنْ أمدَّ أصابعي وأثنيها قبل أنْ أرفعها الواحدةَ تلو الأخرى عدًّا لها، رغم أنّي ما زلتُ أحسّها بضعة أيّام ليستْ إلّا، وأحاولُ أنْ أكذِّبَ الشهور الأربعة التي انقضتْ كحلم.

في تلك الشهور الأربعة، استطعتُ أنْ أرسمَ مسارات حياتي الجديدة على كلّ الأصعدة. كانت علاقتي مع أمّي تتوثَّقُ أكثر فأكثر، ما جعلني أحسُّ بأنَّ الطفل الذي في داخلي قد عاد ليحيا طفولته بشكلٍ واعٍ ولاواعٍ، مع أمٍّ لطالما افتقدتُ حضورها في تلك الطفولة الفعليّة. انعكسَ الأمرُ إيجابًا على علاقتي بأختي علياء التي كانتْ تحسُّ بالغيرة منّي، لأنّها دائمًا ما أحسَّتْ بنقصٍ ما تجاه وجودها في حياة والديَّ كما أخبرتني. قالتْ لي إنّه ليس بوسعي تخيّل أنْ أكون في موقعها، وأنْ أسمع وأرى في كلّ يوم أنَّ والديَّ ينتظران الصبيَّ أو الرجل الذي سيحملهما على كتفيه. حين وُلدتُ، قرأتْ في عينيْهما ذلك. لم يسيئا إليها يومًا، لكنّهما أشعراها من دون قصدٍ طبعًا، بالنقص الذي ليس لها علاقة به. فقط لأنّها وُلدتْ أنثى أوّلاً. كانتْ تريدُ أنْ تثبتْ نفسها دائمًا لوالديَّ من خلال أنّها لا تقلُّ شأنًا عن ذلك الصبيّ المنتظر الذي كنته. بل إنّها

في مرحلةٍ لاحقة، سعتْ إلى القول بالأفعال بأنّها أفضلُ من ذلك الصبيّ في كلّ شيء.

تذكّرتُ، يومَ قالتْ لي ذلك، ما قاله لي أبي ـ رحمه الله ـ حين وبّخني على ترك دراسة الطبّ في العراق والالتحاق بأكاديميّة الفنون الجميلة لدراسة الخطّ العربي، بأنَّ أختي أكثر رجولةً منّي في المواقف الصعبة. قالها مثبّتًا عينيه في عينيَّ اللتيْن أجهشتا ببكاءٍ غير مرئي، قبل أنْ يحوِّلهما باتّجاه حقيبتي الملأى بالقصب وبالأحبار وبالأوراق وكرّاسات وأمشاق الخطّاطين، بينما كان ينتظرُ أنْ تكون ملأى بكتب الدراسة والمجسّمات الطبّيّة والهياكل العظميّة التي يدلُّ امتلاكها على اهتمام صاحبها وتفوّقه لدى أوساط طلّاب الطبّ.

أختي تغيّرتْ كثيرًا خلال تلك الشهور، فبدلاً من أنْ يُشعل اقترابي من أمّي غيرتها أطفأها. هي أسرَّتْ لسارة التي أخبرتني بأنّها تعرفُ أكثر من غيرها ما يعنيه اقترابي من أمّي لأمّي، ولهذا فقد أحسَّتْ بوجوب تغيير بوصلة الأحاسيس. لمْ أخضْ كثيرًا في تفاصيل ذلك. لمْ أشعرْ بأنّي معنيٌّ به بالدرجة الأولى، بقدر ما كان يعنيها هي. ما هو مهمٌّ لديَّ، هو أنّني بتُّ أشعرُ بحميميّة البيت وأهله بشكلٍ لمْ أعتدْ عليه من قبل. لستُ أنسى أنَّ علياء، وفي معرض إعرابها عن جدّيّتها في تسوية الحرب الخفيّة التي شنّتها عليَّ، عرضتْ عليَّ أنْ آخذ

غرفتها التي تحتفظ فيها ببعض الأغراض حين تأتي في زياراتها إلى بيتنا، وأحوّلها إلى محترف خاصٍّ بي. كان العرض من الإغراء بحيث إنّي لَمْ أستطعْ مقاومته للحظة. هي نقلتْ أغراضها في خزانة كبيرة في الطابق العلوي، وأنا صار عندي محترف جمعتُ فيه شتات أغراضي بين غرفتي ومحترفي في المدرسة.

في الخطّ اقتربتُ مرّاتٍ عديدةٍ من إجادة تلك الوصفة التي مات الخطّاط العراقي دون أنْ يُعلمَ بها أيَّ أحد، لكنّي لَمْ أجدْها تمامًا. ربّما كان ذلك فشلاً في نهاية المطاف، بعد كلّ تلك الأيّام والليالي والساعات التي قضيتها مفتّشًا في كتب كبار الخطّاطين عن وصفات الحبر والمداد، وفي تتبّع سيرة حيواتهم لأرى إنْ كان فيها ما يشيرُ إلى وصفةٍ هنا أو هناك سقطتْ سهوًا في كتبهم، وبعد كلّ الاتّصالات بأساتذتي وزملائي الخطّاطين في العراق، وبعد كلّ تلك التجارب المريرة والعديدة لوصفات المداد، وبعد كلّ ذلك التحمّل لسخرية زملائي الأساتذة في المدرسة بشأن ذلك كلّه. على أنّي لَمْ أرَ ذلك على هذا النحو. سأكونُ ظالـمًا إنْ فكّرتُ كذلك. صار بوسعي الزعم أنّي امتلكتُ خبرة تحضير كلّ تلك الوصفات، فضلاً عن توافرها لديّ حصيلة كلّ تلك التجارب. ماذا يعني هذا؟ بتُّ أمتلكُ تراثًا نفيسًا من عيون وصفات المداد، واستطعتُ الحصول على تركيبات جديدة بجودة

متفاوتة جرّاء كلّ ذلك التجريب. هذا نجاحٌ بمعنى ما. أنْ أجمع كلّ ذلك في وقتٍ قصير نسبيًّا، ومقارنةً بالوقت المتوقّع للإلمام بكلّ ذلك. الحمد لله! ذاك ما هوَّنَ ما اعتملَ بداخلي من إحساسٍ باليأس، كلّما فشلتْ تجربة وعدتُ لاختبار ودراسة لون المداد الذي حاولتُ طيلة تلك الفترة معرفة تركيبته.

ليس هذا وحسب. اتّفقتُ مع المدرسة على إقامة معرضي الشخصي الأوّل فيها. لمْ يكنْ ذلك سهلاً نظرًا لتقدّم أكثر من زميل لإقامة معرض جماعيّ. وحدي أنا مَنْ كنتُ أُلِحُّ على فكرة المعرض الشخصيّ. كنتُ أريدُ، فضلاً عن إثبات موهبتي، أنْ أستخدم أكبر تشكيلة ممكنة من وصفاتي الخاصّة التي حضْرتها بقلبي قبل يديَّ. عملتُ على تجهيز قوالب اللوحات قالبًا قالبًا، وبتُّ أعملُ على نطاقٍ واسع على التحضير لمعرضي الذي سيكون بعد ثلاثة أشهر. ساعدني وجود المحترف في البيت على العمل بشكل أكبر وأجود. سابقًا، كنتُ لا أعملُ على اللوحات إلّا قليلاً في غرفتي لأنّي لا أحسُّ بحرّيّتي. تبقى غرفة نوم في النهاية، مهما حدث. لكن، هناك في المحترف، كلّ شيء مختلف تمامًا. لستُ أتذكّرُ عدد اللوحات التي أنجزتها، لأنّي وددتُ العمل على أكبر قدر ممكن من اللوحات ومن ثم اختيار الأجود منها. بدا أنَّ ذلك ينقلني نقلةً نوعيّةً لطالما حلمتُ بها. حين قلتُ لنفسي

للمرّة الأولى بأنّي أريدُ امتلاك تلك الوصفة التي عجز الخطّاطون عن معرفة تفاصيل تركيبها، كنتُ أعلمُ تمامًا بأنّي، وبالنظر لكوني خطّاطًا تقليديًّا، لنْ أستطيع التميّز عن باقي الخطّاطين بسهولة، أو بشكل متمايز، لأنّنا نتشابه كثيرًا في النهاية ليس في الحروف وحدها، وإنّما في أشكال التكوين والتركيب وألوان الورق حتى. ولسببٍ ما، تواطأ كلُّ الخطّاطين على ذلك، حتى بات المختلف يُنظرُ إليه بعين الريبة. لكنّي وددتُ التميّز والتفرّد.

لا حيلة لي بالألوان. أخافها بشكل أكثر صراحةً. هذا حتّمَ عليَّ شكلاً آخر من التحدّي فكان في المداد المستخدم. إذا كان الخطّاطون يُفاخرون باستخدامهم لأجود أنواع الحبر كحبر الزيتون، وحبر الزعفران، وحبر الأرز، وحبر القهوة، وحبر الحصى الأسود (الجوز)، وحبر الدخان، فإنّي فخرتُ بتحضيري لتركيباتٍ واسعةٍ من عيون وصفات الأحبار في كتب ومخطوطات كبار الخطّاطين كابن مقلة وابن البوّاب، أو ما نُقِلَ عنهم وما جُمِعَ من تراثهم كمخطوطة ابن سينا. لمْ يشعرني ذلك بالرضا، لأنّي وددتُ بشكلٍ أكثر صدقًا أنْ أصلَ إلى تركيب ذلك المداد. لمْ أشعرْ باليأس بمقدار ما شعرتُ بالخذلان، حتى جاءت تلك الليلة التي حلمتُ فيها بابن مقلة متأبِّطًا مجموعةً من أقلام الطومار والقصب. لمْ أعرفه طبعًا حين جاء. كان طويلاً عريض المنكبيْن بعينيْن ثاقبتيْن ويدين

ثابتتيْن. كنتُ أوشكُ على التخلّص من كلّ تلك الوصفات التي غصَّ بها محترفي الجديد. أطلَّ دون أنْ أدري كيف دخلَ حينها. ذُعرتُ، لكنّه لمْ يحفلْ لذلك. رمى بأقلام الطومار والقصب باتّجاهي، آمرًا إيّايَ بأنْ أخطَّ بها الآن. لمْ أستسغْ ذلك. لا أحبُّ أنْ يأمرني شخصٌ مجهول. سألته عمّن يكون ليقول لي ذلك بكلّ ثقة. حين أجابني، تداعتْ أطرافي. ارتددتُ إلى نفسي محاولاً ضمَّ كلّ ما تبعثر. رمقتُ باتّجاهه ثانيةً، على أنّي لمْ أجده. بقيتْ الأقلام والقصب وحدها أمامي، على طاولتي وعلى الأرض. اختفتْ كلّ الأحبار الجاهزة وظلّتْ تلك الأحبار التي اعتزمتُ رميها. في تلك اللحظة فقط أدركتُ المراد.

لا أحبُّ أنْ أمدح نفسي. لكن، ربّما يحقُّ لي القول بأنّي افتُتنتُ بجودة كلّ وصفات المداد تلك التي حضَّرتها. كأنَّ غيري مَنْ حضَّرها ولستُ أنا. كأنّي أراها للمرّة الأولى. سألتُ نفسي عن سبب ذلك كلّه. ربّما لأنّي كنتُ مشغولاً باختبارها وفق معايير تلك الوصفة، لا بالنسبة إليها هي في ذاتها. على أنَّ ذلك أسَّسَ شيئًا جديدًا بداخلي. ليس زهوًّا، لكن ما يشبهه حين صارتْ اللوحات تنجز، وكمّيّات الوصفات التي لديَّ، ليستْ لأيِّ أحدٍ في العالم. حتى أستاذي العراقي قال لي إنّه يحسدني على أنّي استطعتُ تحضير وصفاتٍ ليستْ موجودةً ولا متوافرةً في السوق، في تلك الفترة. أوقظ فيَّ كلُّ

ذلك أشياء دافئة. صرتُ أكثرَ هدوءًا وأكثر اتّزانًا. تجربتي في التحضير للمعرض مختلفة. ليس لأنّه معرض شخصي بكلّ ما يحمله هذا التوصيف من معانٍ ودلالاتٍ فقط، وإنّما لأنَّ الذي حدثَ كان متغيِّرًا في نفسي. كلّ المعارض السابقة التي عملتُ عليها، اقترنتْ بشعورٍ داخليٍّ عميق بالوحدة. أمّا في تلك الفترة، فإنّها مغايرة تمامًا. فضلاً عن اهتمام أمّي وأختيَّ بتلك التجربة، حين دفعهنَّ الفضول ربّما إلى الدخول عليَّ مرّاتٍ عديدةٍ في اليوم في محترفي للاطّلاع على جديدي.

ليس هذا وحسب. ثمّة شخصٌ آخر كان بانتظاري يوميًّا، صباحًا، لمعرفة التفاصيل كلّ التفاصيل. كان ذلك الشخص يسبقني إلى المدرسة، ويجلسُ على كرسيّ الانتظار بالقرب من مكتبي. ما إنْ أتقدَّم نحوه حتى يثبَ ملقيًا التحيّة، ويتراجعَ خطواتٍ ليفسح لي المجال لأفتح باب المكتب ولأدعوه إلى الدخول هناك، حيث يبادرني بالسؤال بنبرةٍ مفعمةٍ بإحساسٍ عالٍ: «طمئني أستاذ!»، لأحسَّ بأشياءَ تغرِّدُ في قلبي من دون انقطاع، وأنطلقَ في حديثٍ طويلٍ، لا يقطعه سوى جرس انتهاء الحصّة الأولى حيث يتعيَّنُ عليَّ الذهابُ إلى صفّي. ذلك الشخص غيّرَ أمورًا كثيرةً في حياتي. أنا ما اعتدتُ طيلة حياتي السابقة على أنْ يتحمّلني أحدٌ حين الحديث عن الخطّ، وعن وصفات المداد، وعن قصص الخطّاطين والخطوط. أنا «الثرثار» كما يصفني زملائي الخطّاطون في المدرسة، لمْ أجدْ

قبل ذلك الشخص أحدًا يكونُ بمزاجٍ عالٍ يسمحُ له بالتفاعل مع ما أقوله كاملاً. ربّما وجدتُ من يفعل ذلك، لكن إلى حدٍّ بسيط لمْ يكن يرضيني. حتى أساتذتي وحتى زملائي في العراق وفي البحرين.. كلّ أولئك الذين جمعني بهم ذلك العالم الجميل، عالم الخطّ، لمْ تمتزجْ كيمياءُ أحاديثنا امتزاجًا حقيقيًّا.

كانتْ خالتي تحبُّ أنْ أتحدّثَ إليها، أنْ أتحدَّث عن أيِّ شيء. مهما ابتسمتْ وطلبتْ منّي مواصلة الحديث، فإنّها تفعلُ ذلك لأنّها تحبُّ أنْ تراني متحدِّثًا بسعادة عن أيِّ شيء. كانتْ لها قدرةٌ عجيبة على إخفاء ضجرها الخفيّ من أحاديثي المتعلّقة بالخطّ. أمّا أمّي، فكانتْ حتى وقتٍ قريب، تعلنُ ذلك صراحةً في الأوقات القليلة التي تحدَّثتُ فيها. لمْ يتغيّرْ الأمرُ كثيرًا بعد صلحنا. صحيحٌ أنّها حاولتْ الاهتمام أكثر بي وبذلك الشيء الوحيد الذي كنتُ أفعله في العالم، لكنّ ذلك سرعان ما يذوبُ في ضجرٍ سريع. لمرّاتٍ عديدةٍ ظننتُ أنّي السبب. ربّما كنتُ «ثرثارًا» حقًّا، ولهذا يضجرُ الجميع من تلك الأحاديث. لستُ أعلمُ تمامًا! لكنَّ ذلك الشخص كان يسألني دائمًا المزيد. كان يسمحُ لي بأنْ أنطلقَ وأنْ أستدعي كلّ شيءٍ قرأته وعرفته واستنتجته واستنبطته وكابدته وأنجزته في آفاق الخطّ والحروف. كنتُ معه أحسُّ بوجودي وبما أملك حقًّا. نظراته التي تسألُ الاستزادة، تخطُّ لي ذلك بمدادٍ يحترفُ

لونَ الروح. لمْ أحسَّ بما كان يجري لي. تركتُ لنفسي الحرِّيّة في التعامل معه، منبهرًا بكلّ ذلك الاهتمام والإصغاء، حتى جاءتْ لحظة حسّاسة أرتني حقيقة ما كان يجري.

كان ذلك الشخص طالبتي جنان التي قدِمتْ للمرّة الأولى، متأخّرةً عن موعد بدء الحصّة. تلعثمتْ طويلاً حين حاولتْ تبرير ذلك بازدحام الشارع بالسيّارات. لكنّها، ومنذ اليوم الأوّل، أدمنتْ أنْ تبقى أطول فترةٍ ممكنة بعد نهاية الحصّة، ومن ثم كانتْ تأتي إليَّ في مكتبي، قبل بداية الحصّة أيضًا. لمْ أفكّرْ بأيِّ شيءٍ، ولا أظنُّ أنّها فكّرتْ أيضًا بأيِّ شيء. فقط، كانتْ كلّ الأمور تسير على نحوٍ طبيعي. هي قالتْ منذ اليوم الأوّل بأنّها لا تستطيع مقاومة الحديث عن الخطّ، هي الشغوفة به منذ صغرها. كانتْ تقولُ إنّها لمْ تملك لذلك تفسيرًا. وحدها الحروف بأشكالها المتعدّدة تجتذبها إليها، وحين يتمّ الحديث عن عالم الخطّ تحسُّ بأنَّ شيئًا ما يُصلّي بداخلها.

حين أعودُ إلى تلك الأيّام الأولى، أجدُ أنَّ ذلك الشغف كلّه ليس عاديًّا. لا يمكنه أصلاً بأيّ حالٍ من الأحوال أنْ يكون كذلك. في الحصّة الأولى، جلستْ في القاطرة اليمنى على يسار قاطرة الطالب «كاسيو» وذلك البدين المزعج. حين لوَّحَ لي «كاسيو» بانتهاء الوقت، تبرَّمتْ وقالتْ إنّها تريدُ تمديد

وقت الحصّة. نظرتْ بحدّة إلى ذلك البدين الذي كان يدسُّ دينارًا في يد زميله ليخطَّ له عبارةً جديدة. أخبرني أحد طلّابي بأنَّ ذلك البدين التحقَ بدروس الخطّ العربي فقط لأنّه يريدُ أنْ يخطَّ له زملاؤه رسائل الغرام التي كان يبعثها إلى حبيبته المولعة بالخطّ هي الأخرى. قالَ لها إنّه في المدرسة، وإنّ كلّ تلك الرسائل بخطّه. لا أعلمُ إنْ صدّقته أم لا. لكن ما أعلمه بأنَّه أصبح مصدر رزقٍ لطلّابي، ومن هنا لمْ أعدْ أكترث به إنْ أجادَ مسك القصبة أم لا، لأنّ ذلك آخر ما يفكّر فيه أصلاً.

حين طلبتْ منّي جنان تمديد الحصّة، تلعثمتُ. إنّها المرّة الأولى التي يطلبُ فيها أحدٌ منّي ذلك. مع قسوة التمارين وكثرة الشرح، يحدثُ العكسُ غالبًا. صمتُ الطلبة ونظراتُ التبرّم أحدثت لديها شعورًا بالخيبة. حاولتُ معالجة ذلك كلّه بطمأنتها إلى أنّها تستطيع البقاء، حتى في حال انصراف كلّ زملائها. قبل أنْ تومئ إليَّ موافقةً، نظرتْ شزرًا إلى «كاسيو». كدتُ أضحكُ لولا أنّي سارعتُ بإنهاء الحصّة.

كان ذلك اليوم منطلقًا جدّيًا. أكرِّرُ الاعتراف بأنّي لمْ ألحظْ أيّ شيء. ليس لأنّي لمْ أحسّه، ولكنّي ربّما لمْ أنتبه إليه. كان يحدثُ ويحدثُ ويتعمّق ويظهرُ عليَّ ويُقرأ من عينيَّ، بينما كنتُ لا أعلمُ أكثر من أنّي أشعرُ بالارتياح لمجرّد رؤيتها والحديث معها عن دقائق وأسرار هذه الصنعة وهذا الفنّ.

جنان متحدّثة بارعة. أسئلتها تنمُّ عن فطنة. لمْ تكنْ لمّاحةً وحسبْ، بقدر ما كانتْ تستنطق الحديث عن منطقة الأسرار. على أنّي، وإنْ كنتُ كسائر الخطّاطين أتحفّظ على الكثير من أسرار عملي، إلّا أنّي شعرتُ بوجوب البوح لها ببعضها، لأنّها تستحقّ.

«ماذا تستحقُّ أيضًا؟»، سألتني سارة وهي تلكزني وتغمزُ بعينيها. تلعثمتُ. ربّما كانتْ المرّة الأولى التي أشعرُ فيها بذاك الحرج. ضحكتْ وهي تسألني عن سبب احمرار وجهي. لستُ أعلمُ إنْ كانتْ صادقةً أم لا. لمْ تكنْ أيّة مرآةٍ أمامي. على أنّي أحسستُ بشيءٍ ما أوقفني عن الكلام. أعادتْ السؤال مرّةً أخرى. حاولتُ إظهار أنّي لمْ أفهم مغزى السؤال. لمْ أحاول إنكار أيَّ شيءٍ كما ادّعتْ عليَّ أختي، لكنّي في الوقت ذاته لمْ أستطع الاعتراف. نفذ السؤالُ إلى قلبي. أزهرَ جملة أسئلة. عدتُ للتلعثم وسط تأكيد أختي بأنّها، فضلاً عن أمّي وعلياء، على علم بالموضوع. لمْ أعرفْ ما إذا كان ذلك حقًّا موضوعًا. نفيتُ ذلك، إنّما برفق. ليس رفق مَنْ وهنتْ حجّته، وإنّما رفق مَنْ للمرّة الأولى يواجه أمرًا يعده بكلّ جميل وهو لمْ يعلمه ولمْ يره على حقيقته. كنتُ أجيبُ، بينما رحتُ أفكّرُ في ما إذا كان ذلك كلّه حقًّا. قلتُ لها إنّها طالبتي، محاولاً إبعاد الفكرة قليلاً. «ما المانع؟»، أجابتني من حيث انتظرتُ لأختبرَ الفكرة أكثر. أردفتْ بأنَّ أمّي أوّل مَنْ أحسَّتْ بذلك

وأخبرتها مع علياء بالأمر، لكنّها ودّت أنْ أذهبَ إليها لأبوحَ بها. قلتُ إنّي لا أملكُ سرًّا لأبوحَ به. «اسألْ قلبك!»، أجابتني إجابةً احترفتْ إشعال قلبي بكلّ شيءٍ. قالتْ سارة إنّها ما كانتْ لتعلمَ ذلك لولا أنّي ما كنتُ لأكفَّ عن حديثي عن جنان في أغلب المناسبات، إنْ لمْ تكنْ كلّها. قالتْ أيضًا إنّ نبرة حديثي تكونُ أكثر رقّةً عندِ ذكر اسمها. بالنسبة لي، لمْ ألحظ ذلك.

صحيحٌ أنّي كنتُ أتحدّثُ عنها بشكل عامّ، لكن كلّ الأحاديث في إطار عادي. لم أتحدّث عنها بشكل خاصّ، أو وفق منظوري الخاصّ إليها. الصحيحُ أيضًا أنّي حاولتُ إبطال تلك الحجّة عبر القول بأنّي لم أتحدّث عنها وحدها، وإنّما عن مجموعة كبيرة من طلبتي. لمْ تنكرْ ذلك، لكنّها قالتْ إنّ كلّ تلك الأحاديث لا تعادل مقدار حديث يومٍ كامل عن جنان. «أنت غارق!»، قالتْ لي لتثبّتَ الأمرَ عليّ. ضجَّ قلبي وراح يستعيدُ صورتها. جنان ليست فائقة الجمال. جمالها هادئ وديع. لكن حماستها للحديث تطلقُ المارد الثرثار بداخلي.

لمْ أستطعْ إنكار ذلك أكثر من ثلاثة أيّام، بعد تلك الليلة. ذهبتُ إلى غرفة سارة لأقول لها ما فكّرتُ به. كانتْ تتوقّع ذلك كلّه. حتى سؤالي عمّا إذا كانتْ جنان تنظرُ إليَّ فقط كأستاذ توقّعته. أجابتني بأنَّ الفتاة ترسلُ إليَّ يوميًّا رسائلها عبر

بريد القلب. وحدي مَنْ لا يقرأها. بدا أنَّ ذلك دفّأ قلبي بحروفٍ ليستْ كالحروف. قلتُ لها يومها إنّي لا أعرفُ حقًّا ما إذا كان ذلك ما يسمّى «الحبّ»، أو ربّما كان «إعجابًا». لكنّ الأمر إنْ تطوّر إلى زواج كما صرّحتْ إليَّ أختي، فلنْ أمانع. طلبتُ من أختي التريّث بشأن ذلك كلّه وعدم إخبار أمّي. بيدَ أنَّ أمّي جاءت إليَّ وأخبرتني بأنّها لا تستطيع انتظاري أكثر لأخبرها بالموضوع الذي قرأته للمرّة الأولى في عينيَّ، حين سألتني عن اسم الفتاة التي أتحدَّثُ عنها كثيرًا على حدّ تعبيرها. «جنان».. نطقتُ اسمها يومها بطريقةٍ أقربَ إلى الموسيقى على حدِّ تعبيرها أيضًا، وهو ما كان كافيًا وكفيلاً بأنْ تسبرَ أمّي قلبي بعينيها الحاذقتين.

أتذكّرُ أنّي في الأيّام اللاحقة، بتُّ أقلَّ صبرًا وأكثر جرأةً في محاولة التأكّد ممّا إذا كانتْ تبادلني الإحساس ذاته. لمْ أبحْ بشيء، ولمْ أحاول التلميح حتى، لكنّها على ما يبدو أحسَّتْ بذلك التغيّر الذي لا أملكُ له توصيفًا. أصبحتْ تطيلُ جلوسها لتستقرئ عينيَّ، أو لتنتظرني أبوحُ بما يجعلُ الأمور أكثر وضوحًا، ويدشّنَ مرحلةً أخرى جديدة في حياة كلٍّ منّا. على أنّي لمْ أفعلْ ذلك. ربّما لأنّي خجلتُ من ذلك من جهة، وربّما أيضًا لأنّي وددتُ أنْ يحدث الأمر عبر أمّي التي كانتْ تقفزُ إليَّ بمجرّد عودتي من المدرسة، لتسألني عمّا حدث. «متى؟». تسألني عادةً بمطٍّ منغّم، فأحسُّ بأنّي أودُّ ذلك في

تلك اللحظة، قبل أنْ أعودَ إلى خجلي وأراوغها بالكلام.

ربّما كنتُ بُحتُ لها لو لمْ يأتِ ذلك اليوم مباغتًا وقاتلاً. ربّما ذهبتُ رفقة أمّي وأختيَّ وخالتي إلى بيت جنان لنطلبَ يدها، لو لمْ أتلقَّ ذلك الاتّصال. بيدَ أنَّ ما جرى أنهى تلك الشهور الأربعة الملوّنة، ليستبدلها بشهرٍ كاملٍ من معاناةٍ لمْ تجعل لعينيَّ أنْ يرفَّ لهما جفن. لمْ أكنْ أعرفُ نفسي خلال ذلك الشهر العسير. كنتُ غيري. ولو كنتُ أنا حقًّا، لكان مَنْ كان قبله كلَّ أحدٍ سواي. لستُ أودُّ تذكّر ذلك اليوم. لكن لا مناصَ لي من تذكّره. لمْ أنسه أصلاً. كيف لي ذلك وفيه وُضعتُ في حيرةٍ لا حدَّ لها ولا قرار؟ كلّ الذي جرى فيه، وإنْ مضى وانتهى، فإنّي سأظلُّ أحسّه ما زال متدفّقًا في شراييني وأوردتي. لستُ أبالغُ البتّة. لكن ما حدث جعلني أعيدُ التفكير في كلّ شيء، محاولاً الإلمام بالصورة الحقيقيّة من جديد. تلك الأسئلة المعذّبة لستُ أنساها. كانتْ تفخّخني بما لستُ أعلمه من أسئلةٍ أشدَّ فتكًا من أيِّ وقتٍ مضى. أسئلة من النوع الناعم التي تحترفُ المجيء بكلّ هدوء لتعلنَ عن نفسها، وتجعلك في مهبِّ التبعثر والتشظّي. هناك حيث أنتَ مصلوبًا على جذع حيرةٍ راسخةٍ في التيه!

من أين أبدأ وكلّ جهات عقلي مشتّتة؟ كلّها تسير في مساراتٍ متوازية تصبُّ في مجرى واحدٍ لوّنني بما لستُ

أستطيع إلى توصيفه سبيلاً. ما فتئتُ أتذكّرُ ذلك اليوم قبل ما يقارب الشهرين، حين اتّصلتْ بي خالتي بينما كنتُ أخطّ لوحةً جديدة. لسببٍ ما لمْ أودَّ الردّ. كأنَّ قلبي أحسَّ بشيءٍ ما ينذره. لكنّي أجبتُ عن المكالمة. لمْ تبادرني خالتي بتحيّاتها المعهودة، ولا بعبارتها المغرية «الباستا لا تنتظر»، ولا بعتبها الخفيّ في ثنايا سلام دافئ. فقط طلبتْ بنبرةٍ أقرب إلى الرثاء، أنْ أذهبَ إليها فورًا. لمْ أعرف ما أقول. تلك النبرة المتهدّجة والمتعثّرة بعثرتْ اتّزاني. جعلتني من حيث لا أدري أستجيبُ فورًا. «ما بكِ خالة؟»، سألتُ دون أنْ أتلقّى أيّما إجابة. أعادتْ بنبرةٍ تكادُ تذبلُ، طلبَها. طمأنتها إلى حضوري الفوري، وهو ما حدث.

حين خرجتُ، لمحتُ ذلك الرجل الفظّ أمام بيت جارنا. تذكّرتُ ما كشفه لي أحدُ جيراننا عن أنّه عمدَ إلى إثارة الإشاعات والمخاوف بشأن منطقتنا من حيث إنّها مسكونة بالجنّ. كان قد اكتفى بتلك الإشاعة، لتخرج النسوة للحديث عن سماعهنَّ لأصوات الجنّ في الليل في بيوتهنَّ. بعض الرجال كذّبوا ذلك، لكنّهم استسلموا أمام حالة الذعر التي اجتاحتْ بيوتهم، وهكذا باع ثمانية أشخاصٍ بيوتهم لذلك الرجل الفظّ الذي حاول إيقافي لدى مروري به، لكنّي أسرعتُ أكثر لأوصل إليه رسالة استحقار باتتْ مستحقّة.

حين وصلتُ إلى بيت خالتي، لمْ يتغيّر فيه أيُّ شيءٍ منذ زيارتي الأخيرة، كلّ شيءٍ على حاله: الألوان، والأثاث، والديكور. . وحدها وجوه أهله التي تغيّرتْ! عند باب الصالة، كان وجه زوج خالتي مذعورًا. أومأ إليَّ بالدخول بيدٍ متثاقلة. أحسستُ بشيءٍ ما زنّرَ قلبي بأفكارٍ قاتلة. كدتُ أسأله عمّا جرى، لولا أنْ أطلّتْ شيماء ممتقعة اللون ناحلةً. «سلام! أمّي بانتظارك»، قالتْ في ما يشبه بكاءً مخنوقًا. نظرتُ إليها متفحِّصًا ذلك النحول والشحوب. كانتْ عيناها إلى الأرض. وحدها يدها أشارتْ إلى غرفة خالتي.

قمتُ والأسئلة تصهلُ بداخلي. لمْ أستطع الكلام. كأنَّ ذلك الجوَّ أضفى مهابةً للصمت بحيث سيُعَدُّ الكلامُ عيبًا أو منقصة. عندما اقتربتُ من شيماء، حاولتُ سؤالها عمّا جرى. أبقتْ عيناها على سجّاد الصالة، بينما تقدّمتُ خطواتٍ باتّجاه غرفة خالتي التي دخلتها من قبل مرّاتٍ عديدةً في طفولتي.

لمْ يكنْ عطر خالتي المفضّل «Dior» يعبقُ في أنحاء الغرفة كعادتها. لمْ تكنْ خالتي التي عرفتها هناك. كانتْ أخرى ما عدا ملامح شبيهة لملامحها. لمْ أعرفها لشدّة ما اختلف وجهها عمّا عهدته منذ أيّام طفولتي، بل منذ زيارتي الأخيرة قبل شهورٍ قليلة! كان وجهها ذابلاً شاحبًا زاده قصُّ شعرها بطريقة، لمْ تبدُ أنّها ذات صلة بالجمال، إحساسًا مخيفًا.

«خالتي؟»، سألتها لأتأكّد إنْ كان ذلك الجسدُ المتداعي هي أم لا. لمْ تجبني. بدا لي أنّها استيقظتْ للتوّ من سبات عميق مذعورةً. شعرتُ بالذنب. تأسّفتُ لأتلقّى إيماءةً منها بأنّ الأمر عادي. نظرتُ إليها. عيناها منطفئتان. ثمّة ما يُحتضرُ بداخلهما. يدها تكابدُ حين تحرّكها، أمّا صوتها فقد بدا أنّه مواء. قرّبتني إليها أكثر على سريرها حيث جلستُ. وضعتْ يدها على رأسي وحاولتْ الكلام. حدّقتُ فيها مستشعرًا أمرًا ما أخافني. «خالة؟»، زفرتُ. أرختْ يدها. مدّتها باتّجاه وسادتها حيث استخرجتْ مجموعة أوراق قدّمتها إليَّ. تناولتها على عجل. كانتْ أوراقًا طبّيّةً.

تذكّرتُ أنّي لمْ أمسكْ بأيّ ورقة تقرير طبّي، منذ أيّام دراستي الطبّ في العراق قبل أنْ أنسحبَ نهائيًّا. اتّسعتْ عينايَ مرّاتٍ ومرّات. ربّما لمْ تعودا هناك في محجريهما. أمّا قلبي فقد تعرّضَ إلى عاصفة اقتلعتْ كلّ اتّزاني. رفعتُ عينيَّ باتّجاه خالتي التي أجهشتْ بالبكاء. عانقتها مستذكرًا كلّ تلك الأيّام التي تهرّبتُ فيها من لقائها. حين أغمضتُ عينيَّ سامحًا لأوّل دمعةٍ بالنزول، فكّرتُ في أشياء عديدة تجاوزتْ تلك اللحظة. أحسستُ بأنّي لا أودُّ لخالتي الحديث. الأحاديث التي سحقتْ قلبي حينها أغنتني. في التقرير، ثمّة إشارة واضحة إلى أنّ مرحلة ورم السرطان الخبيث متقدّمة. كان الاكتشاف متأخّرًا جدًّا. لا شيءَ في تلك اللحظة يمكن أنْ

يقال. لا شيء يمكنه أنْ يعبّر عن تلك الحال بصورةٍ أو بأخرى.

ارتسمتْ أمامي صورة خالتي الضاجّة بالحياة وبالحيويّة، في قبالة صورتها بتلك الهيئة المنطفئة. فكّرتُ في أقدارنا، وفي ما يحدثُ لنا ذات زمن. كيف تنقلبُ أحوالنا بتلك الصورة الدراماتيكيّة؟ لمْ أعرفْ ما أقول حينها من باب المواساة. أحسستُ أنّ كلّ الكلام قيلَ أو كاد. الأكيدُ أنّي سيّئٌ في التعبير وفي الكلام. ربّما كنتُ «ثرثارًا» في عالم الخطّ، لكنّي في الحياة الواقعيّة لستُ سوى شابٍّ فقير اللغة. كان الصمت مهيمنًا إلى الحدّ الذي أنساني أنّي قادرٌ على الكلام بصوتٍ مسموع.

توقّفتْ خالتي عن البكاء وراحتْ تتأمّلني. كأنّها كانتْ بانتظاري لأهدأ أو لأتماسك. حدّقتُ فيها لأرى إنْ كان حقًّا ما كتب في التقرير حقيقة. هربتْ بعينيها عنّي. ضغطتْ على أصابعها بقوّة، ورفعتْ وجهها بإزائي. تنهّدتْ أو لأقلْ زفرتْ آهةً من قلبٍ مشظّى لتشرعَ بذلك حديثها الذي قصفني وقيّدني مدّة شهرٍ كامل في سجنٍ من التيه.

.

بعد تلك الليلة، تغيّرت فيّ أشياء عديدة. فقدتُ القدرة على إتمام اللوحات. مزّقتُ العديد منها. شعرتُ بأنّ يدي لا تطاوعني وأنّ المداد يتربّصُ بي سوءًا. لمْ أحسَّ بذلك الحماس الذي كنتُ عليه، قبل شهر تقريبًا.

في المدرسة، أذنتُ لطلبتي بالانصراف مبكّرًا قبل أنْ يلوّح لي «كاسيو» بذلك. وفيها أيضًا تحاشيتُ الالتقاء بجنان في مكتبي قبل الحصّة، من خلال قدومي إلى المدرسة تمامًا بعد دقائق معدودة من بداية الحصة، وانصرافي المبكّر والسريع بعدها متظاهرًا بانشغالٍ ما لأتجنّبَ الحديث معها. كانتْ عيناها تسألانني عمّا حدث. هي التي أحسّتْ باقتراب الأمر من نهايته السعيدة، لمْ تكنْ بوارد فهم ما كان يحدثُ أمامها على تلك الشاكلة الغريبة.

أنا لمْ أفهم أيَّ شيءٍ أصلاً. وحده قلبي الذي كان مدفوعًا بأحاسيس متوتّرة، يملي عليَّ فأجيب. لمْ أملك القدرة على مجابهة أيّ شيء. صورة خالتي لا تفارق مخيّلتي. أدمنتُ الاتّصال بها لأطمئنَّ عليها. كأنّي أحسستُ بأنّها ستموتُ في أيّة لحظة. بعد انتهائي من كلّ مكالمة معها، أحمدُ الله أنّها ما زالتْ على قيد الحياة، وأشعر بضرورة حسم الأمر وفق ما أرادته. لا بدّ من ذلك لترتاح. ربّما ذلك أقلّ القليل الذي بوسعي تقديمه إليها.

نظرتُ في عينيْ جنان وفي يديها. كان يمكن أنْ يكون الخاتم في إصبعها كما في إصبعي، لولا تلك الوصيّة في تلك الليلة. فكّرتُ محاولاً كتم تنهّداتي. لكنّ الوصيّة ليست بذلك السوء. ما هو سيّئٌ ربّما هو توقيتها. ربّما كانتْ سيّئةً على كلّ حال. ربّما وربّما وربّما. احتمالاتٌ وأفكارٌ عديدةٌ تبارزت في عقلي الذي لمْ يعد يحتملها. عدتُ إلى تلك الوصيّة التي أوصتني بها خالتي. لا شيء فيها يبدو عسيرًا. كلّ ما فيها أنّها أوصتني بالزواج من ابنتها شيماء لتطمئنَّ عليها. ربّما هذا من حقّها. هي التي قالتْ لي بأنّ أيّامها معدودة بعد توغّل الورم الخبيث في رأسها.

شيماء ابنة خالتي، رفيقة طفولتي وصباي، تجمعني بها ذكريات وصورٌ شتّى. تعلّقتُ بها أكثر من أختيَّ، لكنّها كانتْ

دائمًا كعلياء وسارة. ليس أكثر من ذلك ولا أقلّ. لمْ أعرفْ إنْ كان لا بدّ من ذلك الزواج. لو طلبتْ منّي خالتي ذلك قبل أنْ تأتي جنان، لكان الأمر سهلاً جدًّا. لكن بعد مقدمها، ثمّة ما في قلبي يرفض ذلك. الواجب يحتّم عليَّ الاستجابة لتلك الوصيّة التي كانت ترنُّ باستمرار في عقلي. لمْ أخبر أمّي ولا أختيّ. صحيحٌ أنّهنّ علمنَ بمرض خالتي طبعًا، لكنّي لمْ أجرؤ على إخبارهنّ بالأمر. فكّرتُ بأنّي أودّ اتّخاذ القرار بنفسي ومن ثم أعرضه عليهنّ بصورة الراغب، أكثر من صورة الممتثل للواجب.

ربّما حين أقول ذلك، أبدو مثاليًّا. على أنّي لستُ كذلك أبدًا. لطالما فكّرتُ بأشياء شيطانيّة. أتذكّرُ أنّي في ليالٍ عديدة، فكّرتُ في أنّ ما سأفعله من باب الوفاء أكبر خيانة لقلبي ولحياتي ولحياة شيماء وجنان أيضًا. كم هو مضنٍ ذلك الوفاء حين يتعلّق بعدم رغبة حقيقيّة من القلب. الوفاء هو ما ينبعُ من القلب، لا ما يفرض عليه. قلتُ لنفسي مرّات كثيرة بأنّي لستُ أنا، حين أحسستُ بنوعٍ من الكره لخالتي. ليس لأنّها كبّلتني بما لا أريد وحسبُ، بل لأنّي أحسستُ أنّ كلّ الذي قدّمته لي طيلة فترة حياتي وكلّ ذلك الاهتمام كانا مدّخرًا للحظة كتلك اللحظة.

تذكّرتُ كلّ تلك الصور التي جمعتني بها، لكن بمنظور

مختلف. شعرتُ بنوع من الخديعة. جثم شيءٌ ما على صدري جعلني أتقيّأ أحاسيسَ لمْ أتوقّعها منّي. حاولتُ مرّاتٍ ومرّات أنْ أقنع نفسي بشيماء. لا شيءَ يعيبها سوى أنّها ليست من عالمي. لو لمْ أرَ جنان، لقلتُ إنّي لنْ أجد تلك الفتاة التي تنتمي إلى جنوني. لكنّها أتتْ، بكلّ أحاسيس قلبها التي دفّأتني، وبما كنتُ في أمسِّ الحاجة إليه.

جهدتُ في التفكير في ابنة خالتي بوصفها زوجةً لي. عبثًا كان كلّ ذلك. كلّ الذي حدث وجمعنا منذ طفولتنا كان أخويًّا. حتى حين تحجّبتْ شيماء للمرّة الأولى، خلعتْ الحجاب أمامي. عندما نهرتها خالتي أجابتها بأنّي أخوها. إذن لستُ وحدي. هي كذلك. هي؟ لمْ أعلمْ إنْ كانتْ على علم بالأمر أم لا. إنْ كانتْ تعلمُ به فهي تنتظر ردّي سواء بالموافقة أم لا. هل علمتْ به قبل أن تعرضه خالتي عليّ؟ إن حدث ذلك فهي موافقة. لا شيء أسوأ من أن تكون البنت موافقة ويتلكّأ الشابّ. ستشعر البنت بالمهانة والمذلّة حتمًا. لم تكن شيماء وهي بكلّ تلك المواصفات، تستحقّ إهانةً كهذه ومنّي أنا الذي لطالما كنتُ إلى جانبها وشريك طفولتها. لكن، ماذا لو لم تكن تعلم وكانت تخطّط مثلي للارتباط بشابّ آخر تحبّه كما هو الحال عندي؟ لن أكون عندها بطلاً. سيكون ذلك الوفاء قاتلاً لحياتها.

ماذا أردتُ في كلّ تلك اللحظة؟ أنْ تنتفض شيماء وتنهي القصّة كلّها؟ ربّما. لكن ذلك لمْ يحدث. كنتُ أربّي بداخلي فكرة الارتباط بها وأحاول التخلّص من استغاثة قلبي التي تجنح بي نحو جنان. لمْ أرَ جنان طيلة أسبوع كامل. وددتُ الاتّصال بها، لكنّي أحسستُ أنّ ذلك سيمثل خيانةً ما. ثم إنّي فكّرتُ في ما سأقوله لها. لا بدّ أنّها ستسألني عمّا تغيّر. لستُ كاذبًا، وإنْ كنتُ، فلأكنْ كذلك إلّا أنْ أكذب عليها. ماذا سأقول لها؟ الحقيقة؟ بالطبع لا! لا يمكنني ذلك بكلّ الأحوال. كلّ الذي كان بوسعي قوله لها هو إرسال رسائل الاعتذار في قلبي، لعلَّ يدًا رحيمةً تستلُّ تلك الرسائل لتودعها قلبها.

كانت تنصحني دائمًا بأنْ أغسلَ عينيَّ تجنّبًا للإرهاق. لو أنّها رأتْ عينيَّ اللتين سوّد جفنيهما السهر، لما عرفتهما. على الرّغم من أنّي أدمنتُ الذهاب مبكرًا إلى سريري طلبًا للنوم، إلّا أنّي لمْ أستطع ذلك البتّة. كانت كلّ تلك الأفكار تقلقني وتبقي عقلي مسرحًا على احتمالات عديدة. حين تداعتْ قواي ولم أستطع كتم ذلك الأمر كلّه، أخبرتُ أمّي به. كانتْ أمّي تلحظ طبعًا حالتي السيّئة. عذري جاهز عندها من حيث حزني على حال خالتي. لكن لا أحد على علم بالحقيقة. حين أخبرتها ذُهلتْ. راحتْ تسبرُ عينيَّ كما تتقنُ أنْ تفعل. قرأتْ كلّ شيء. أبلغتها بقراري بأنّي سأنفّذ الوصيّة. قلتُ لها بصورة

تحاول أن تكون حاسمةً بأنّي على اقتناع بذلك، وبأنّي أولى من الغريب بابنة خالتي، ثم إن لا شيء يعيبها أو يجعلني أرفض الارتباط بها.

«وجنان؟»، سألتني أمّي لتجعلني أعودُ خطواتٍ إلى الوراء. قصفت جسر محاولتي الأخيرة لحسم الموضوع. حاولتُ التظاهر بأن لا شيء حدث مع جنان لأنّنا لم نفاتحها في الأمر، ولا نعلم رأيها، فضلاً عن أنّ ما حدث حدث. سألتني التريّث في الأمر. حاولتُ الإلحاح على أنّي حسمتُ أمري. كانت تقول لي بأنّها تفهمني. لم أعلم لمَ بدتْ إليَّ في تلك اللحظة أقرب من أيّ وقتٍ مضى. ارتميتُ في أحضانها. حاولتُ أنْ أقول لها بشكل أكثر وضوحًا إنّي في حيرةٍ عظمى. لمْ أشأ البوح لها بما شعرتُ بأنّه نوع من دفع فاتورة كلّ ذلك الدلال، طيلة السنوات الماضية. خجلتُ من قول ذلك. مهما حدث بين أمّي وخالتي، فإنّهما أختان على أيّ حال. قلتُ في نفسي إنّي سأحتفظ بذلك لنفسي. بيد أنّي أحسستُ أنّ أمّي قرأت ذلك كلّه في عينيّ. ربّما توهّمت ذلك أيضًا. فقدتُ القدرة على الكلام. ما لمْ أفقده فقدته.

رغم ذلك كلّه، واظبتُ على زيارة خالتي، لكن برفقة أمّي أو إحدى أختيَّ. لمْ أشأ الانفراد بها لئلّا تسألني عمّا إذا كنتُ سأستجيبُ للوصية أم لا. نجحتُ في ذلك بامتياز. اكتفتْ

خالتي بالتلميح لي من بعيد، وكان عليّ أن أتقن فنّ التجاهل أو التظاهر بعدم الفهم. عينا شيماء تشيان بأشياء كثيرة. لمْ أستطع قراءة ما بهما حقًّا. ربما لأني لم أودّ ذلك، أو لأني خشيتُ أن تسبقني لقراءة عينيّ.

في إحدى الليالي، حلمتُ بأنَّ عيسى زميلي قد تزوّج جنان. كانت جنان عنده في مكتبه الذي يجاورني. استيقظتُ مذعورًا. أحسستُ بأنفاسي تفتك بي. نهضتُ إلى محترفي. لمْ أغسل وجهي. كنتُ ما أزال مأخوذًا بتلك الصورة. جنان التي حين تأتي إليَّ، يغمز إليَّ عيسى من بعيد، هي عنده وله وليست لي.

في المحترف، حاولتُ كتابة اسم جنان. حين أخطّ الاسم فإنّي أستدعيه. أضمِّنُ في ثنايا كلّ تفصيل شكل حرف من حروفه، رسائل عشق حبّرها قلبي. على أنّ كلّ تلك المحاولات باءت بالفشل. كانت يدي يابسة كأنّي انقطعتُ عن الخطّ قرنًا. لسبب أو لآخر، مزّقتُ الورقة ثم رميتُ بالمداد الذي حضّرته طيلة شهر كامل باستهتار. أحسستُ بأنّ المحترف قبر، بينما نقّلتُ عينيَّ في لوحاتي المعلّقة أو في تماريني المنتشرة على الطاولة. حين رأيتُ حروف اسم جنان أو اسم خالتي أو شيماء. كان كلّ شيء يتدفّق سريعًا. كان الوقت يعلكني ليجعلني في صراع مجنون مع ذاتي. سأكون

كاذبًا إنْ أنكرتُ أنّي تمنّيتُ أن يكون كلّ ذلك مقلبًا أو شيئًا غير حقيقي، مزحةً أو أيّ شيءٍ آخر أقلّ فتكًا بنفسي التي، لشدّة ما حدث، لمْ أعرفها.

هل كان حلمًا؟

سألتُ، لأنّ الأمر حدث على نحو لا يتّسق إلّا في سياق حلم ما، في ليلة عابرة. لستُ أدري سوى أنّ كلّ ما حدث حَدث متسارعًا بشكل لمْ أتوقّعه، أعاد إليَّ ذاتي التي انطفأتْ!

حين أتذكّر ذلك الآن، أكاد لا أصدّق أنّ كلّ ذلك حدث. كانت ليلة غريبة حين أطلّت عليّ أمّي في محترفي بوجه باسم. ظننتُ أنّ خالتي قد تعافتْ من مرضها، أو أنّ خبرًا سارًّا تحملُ بشراه إليَّ بشأن علاجها، لكنّها أجابت بالنفي حين سألتها عن ذلك. قالتْ إنّ الأمر يتعلّق بي وبشيماء. حاولتُ بصورة يائسة التأكيد على أنّ قراري بالموافقة نهائي، قبل أن توقفني عن مواصلة ذلك الحديث. قالت إنّها

حدّثتْ خالتي في الأمر، وإنّ خالتي تبلّغني أنّي في حِلٍّ من تنفيذ تلك الوصيّة. لمْ أصدّق ذلك. لكن أمّي أقسمتْ بأنّ كلّ ذلك حقيقة. قالتْ إنّها لن تسمح لخالتي، مهما كان الظرف، بأن تسرقني منها من جديد. ولن تسمح بأن يفرض أيّ شخص عليَّ ما لا أريده، حتى لو كان هذا الشخص خالتي.

حاولتُ رفض ذلك، على أنّ تأكيد أمّي كان قاطعًا وجازمًا. عانقتها وبكيتُ. بكيتُ دون أن أدري. «جناااااااااان!»، ناديتها في سرّي حينها. كأنّي كنتُ أقول لها بأنّي قادم إليها. لكنّي توقّفتُ عند ذلك واستدركت: «وشيماء؟»، سألتُ مستفسرًا عن مصير ابنة خالتي. حدّقتْ أمّي فيَّ بعينيْن مقدّرتين قبل أن تجيبني بأنّ نصيبها سيأتيها فلا شيء يعيبها. أحسستُ بأنّي على وشك أنْ أخطّ لنفسي حياتي الجديدة وفق ما أردتُ حقًّا.

ولأعترف، إذ أهذي بكلّ هذا الهذيان الآن، بأنّي لستُ أستطيع الصبر أكثر لتأتي الساعة الثامنة مساءً، حيث سيتمّ افتتاح معرضي، بعد ساعتين من عقد قراني على جنان، مداد روحي الأنقى التي استعدتها بعد تلك الليلة التي أخبرتني فيها أمّي بقرار خالتي الأخير.

أتذكّر أنّي اتّصلتُ بها صباحًا. لمْ تصدّقْ أنّي المتّصل. أخذتُ إجازةً في ذلك اليوم وقضيتُ الوقت كلّه معها، مخبرًا

إيّاها كلّ ما جرى لي في تلك الأيّام العصيبة. كانتْ تنظرُ إليَّ بحنينٍ أحسستُ أنّي أمتلك أضعافه تجاهها، لكنّي حاولتُ قدر ما أستطيع أن ألجم نفسي.

أمّا الآن، فلا شيء سوى أنّني سأخطّ على صفحة الوجود حروفي بمدادٍ يشفُّ ويصفو ليكونَ في معنًى من معانيه، أو ربّما في أبسط دلالاته: مِدادَ الروح!

خط الغلاف لأيمن جعفر

يحلم أحمد، مدرّس مادّة الخطّ، بتحضير مِداد يضمّه إلى عائلة كبار الخطّاطين، لكنّه يجد نفسه مادّة لصراع عنيف ما بين أختين، الأولى هي والدته والثانية خالته، ثم ما بين فتاتين، الفتاة التي يحلم بها حبيبةً، وابنة خالته رفيقة طفولته وصباه.

هكذا يتقدّم السرد ما بين مسارين متوازيين، مسار الحلم والتوق الذي يسطّره المداد، ومسار العلاقات العائليّة التي تخفي تعقيداتها في ثنايا بساطة ظاهرة.

أيمن جعفر: كاتب وفنّان بحريني من مواليد عام ١٩٨٥. له مجموعتان قصصيّتان بعنوان «أسـفـارُ الجـحـيم» و«دفاترُ البحر والموت». «مداد الروح» هو عمله الروائي الأوّل، وقد أُنجز في إطار «محترف نجوى بركات» في دورته الثانية (ربيع ٢٠١٣ - ربيع ٢٠١٤) التي أقيمت بالتعاون مع وزارة الثقافة في مملكة البحرين.

ISBN: 978-9953-89-453-9



دار الآداب
هاتف: 01/795135 – 01/861633
ص.ب بيروت: 4123-11